عهد

كريم محمد على

رواية عهد

مقدمة

تتناول الرواية قصصًا مستوحاة من الواقع، رغم أن الشخصيات فيها خيالية. أي تشابه بين أحداث القصة والواقع ليس محض صدفة، بل استلهمتها من المقالات المنشورة على المواقع السورية عبر الإنترنت، مثل "حكايات ما انحكت" و"عنب بلدي". ومع ذلك، فإن هذه الرواية لا تدعي الإحاطة بجميع المشاكل والأزمات التي واجهها السوريون خلال السنوات العشر الماضية، والتي تُعد العشرية السوداء في تاريخ سوريا الحديث. بل هي محاولة متواضعة لنقل جزء من معاناة اللاجئين السوريين في المخيمات.

"بين نارين: احتفال وسط الذكريات"

كانت "عهد" تجلس بجوار جدها على سطح المنزل، بينما تملأ السماء الألعاب النارية احتفالًا بالعام الجديد. كانت الألوان المتفجرة تضيء السماء الداكنة، وتختلط الضحكات بالهتافات التي تصدر من كل مكان، وكأن المدينة كلها تشارك في هذا الاحتفال الضخم. لكن، بينما كانت العائلات تودع عامًا مضى بكل ما حمله من أفراح وأحزان ونجاحات، كانت هناك أيضًا ذكريات حاضرة، ذكريات لا يستطيع الزمان محوها بسهولة.

تحدق "عهد" في السماء، التي كانت في تلك اللحظة تشتعل بضجيج الألعاب النارية، فتتذكر صوتًا آخر، صوت المفرقعات، ولكن هذه المرة كان صوت قصف الطائرات الحربية للحي القديم في حلب. ذلك الصوت الذي كان يملأ لياليهم بالخوف والترقب، حتى أصبح جزءًا من ذكرياتهم التي لن تنسى أبدًا. لم تكن "عهد" تفهم معنى كلمة "معارضة" في ذلك الوقت، ولم تكن تعرف لماذا أصبحت مدينتها تحت سيطرتهم. كل ما تعرفه هو أن حياتهم انقلبت رأسًا على عقب، وأنها فقدت مكانًا كان يومًا ما بيتها.

لم يكن هذا الاحتفال يشبه الاحتفالات التي عرفتها من قبل، لم تعد الألعاب النارية وسيلة للفرح بالنسبة لها. بل أصبحت رمزًا للرعب، لتلك اللحظات التي عاشتها وهي تراقب السماء بقلق. وضعت "عهد" يديها على أذنيها، تحاول أن تمنع نفسها من سماع صوت الصواريخ التي عادت لتطاردها في مخيلتها. لعلها كانت تحاول نسيان آثار الخراب الذي تركته تلك الصواريخ في بلدتها، في ذاكرتها.

نظر الجد إليها، وفهم على الفور ما يدور في خلد الطفلة. شعر بشيء من الأسى في قلبه، لكنه لم يستطع مقاومة ابتسامة صغيرة. لم يكن يريد أن يرى حفيدته غارقة في هذا الحزن، في هذا الخوف. حاول أن يخفف عنها قائلاً: "لا تخافي يا بنيتي، هذه الصواريخ فقط للحتفال، لن تصيبنا بسوء."

رفعت "عهد" يديها ببطء من على أذنيها، لكنها لم تكن مقتنعة تمامًا. نظرت إلى جدها بعينين مليئتين بالتساؤلات، وسألته بصوت طفولي: "لماذا يستخدمون الصواريخ في الاحتفال؟ أليست نفس الصواريخ هي من طردتنا من بلدتنا؟"

أخذ الجد نفسًا عميقًا، محاولًا أن يجد الكلمات المناسبة لشرح الأمور لحفيدته. هز رأسه بحزن وقال: "ليست مثلها يا عزيزتي. هذه الصواريخ تحدث ضجيجًا، لكنها لا تحدث الدمار."

نظرت إليه "عهد" مرة أخرى، وبراءة الطفولة لا تزال تملأ عينيها، ثم سألت بجدية: "لماذا لم يستخدموها في سوريا إذن؟ لماذا لم يستخدموا تلك التي لا تدمر، بل فقط تضيء السماء؟"

أجابها الجد وهو يحدق في السماء مرة أخرى، وكأنه يبحث عن إجابة في تلك الأنوار اللامعة: "لأنهم ببساطة أرادوا تدميرها."

ظلّت "عهد" صامتة، تفكر في كلمات جدها. ثم نظرت إلى السماء المتوهجة وقالت بصوت خافت: "وهل يرضيهم أن نترك ديارنا ونصبح مشردين؟"

حدق الجد في السماء مرة أخرى، وارتسمت على وجهه تعابير تعكس ثقل السنين التي عاشها. قال بصوت هادئ لكنه مليء بالمرارة: "يا بنيتي، لا تغرنك مظاهر الحضارة المعاصرة. تلك التي تبدو نظيفة وتسير على عقارب الساعة. الحقيقة أكثر قسوة مما يمكن أن تتخيليه."

شعرت "عهد" بثقل الكلمات التي نطق بها جدها. كانت تعلم أن الحياة ليست بسيطة كما تبدو، وأن ما حدث لهم في حلب لن يُنسى بسهولة. ولكنها كانت تأمل في قلبها الصغير أن يأتي يوم يعود فيه كل شيء إلى طبيعته، يوم يعودون فيه إلى ديارهم، دون خوف أو ألم.

كانت "عهد" لا تزال جالسة بجوار جدها، تحاول فهم كلماتِه والتعمق في معانيها. نظرت إلى السماء التي كانت تتلألأ بألوان الألعاب النارية، لكنها لم تستطع التخلص من ثقل الأفكار التي تدور في رأسها. تلك الأضواء التي كانت ترسم ابتسامات على وجوه الآخرين، كانت بالنسبة لها تذكرًا مؤلمًا لأيام الرعب والدمار.

أحس الجد بحيرة "عهد" وارتباكها، فابتسم برفق ومسح على رأسها قائلاً: "أعلم أن الأمور تبدو معقدة يا صغيرتي، ولكن العالم ليس دائمًا كما يبدو. تلك الحضارة التي تجرم قطف الأزهار أو كسر الأغصان من الحدائق العامة، وتخشى أن تُخدش مشاعر كلب أو قطة، هي نفسها التي تستعد لإبادة شعوب بأكملها إذا ما تعارضت مع مصالحها."

حدّقت "عهد" في وجه جدها بعينين واسعتين، وكأنها تحاول استيعاب ما يقوله. بدت كلماته وكأنها تأتي من عالم آخر، لغة لا تفهمها تمامًا. بعد لحظات من الصمت، سألته بصوت خافت: "لماذا هدموا بيتنا إذن؟"

تنهد الجد بعمق، ونظر إلى الأفق المضاء بالألعاب النارية قبل أن يجيب: "لم يقصدونا نحن بالتحديد، يا عزيزتي. هم يسعون للسيطرة على مفاتيح بلاد الشام، ونحن كنا جزءًا من هذه الأرض. قدرنا أننا ولدنا في الشام، وهذا جعلنا نقع في وسط هذه الصراعات."

ثم أضاف بصوت مملوء بالأسى: "المشكلة أن العالم اليوم يتعامل مع البشر كأرقام، كأشياء متشابهة لا قيمة فردية لها. يرون أن الحرب السورية ستنتهي بإعادة الإعمار، ويتناسون المآسي الإنسانية والقلوب المكسورة التي خلفتها تلك الحروب."

قبل أن تتمكن "عهد" من الرد، قطع حديثهما صوت صراخ يأتي من بعيد. استدار الجد ليرى مصدر الصوت، ثم قال بابتسامة دافئة: "يبدو أن والدتك تبحث عنا."

نظرت "عهد" في الاتجاه الذي يشير إليه جدها، فرأت والدتها "ليساء" تمشي بسرعة نحوهما، وملامح القلق بادية على وجهها. عندما اقتربت منهما، قالت بنبرة مزيج بين العتاب والارتياح: "لماذا تتركان المخيم لتجلسا في الخلاء بهذا الوقت المتأخر؟"

أجابها الجد بهدوء: "أردنا أن نشم هواءً نقيًا بعيدًا عن تكدس المخيم وضجيجه. هنا يمكننا أن نشعر ببعض السكينة."

أطلقت "ليساء" زفرة خفيفة، ثم قالت وهي تنظر إلى السماء المليئة بالأضواء: "في هذه الساعة المتأخرة؟ كنتما قد أقلقتماني."

رفع الجد يديه إلى السماء، ودعا بصوت خاشع: "اللهم اكتب لنا الخير في هذا العام، واجعله بداية لجمال الأقدار، وارزقنا من حيث لا نحتسب يا رب."

جلست "ليساء" بجانب ابنتها، واحتضنتها برفق قبل أن تقول: "هل سمعتم آخر الأخبار؟"

حاول الجد أن يتصنع عدم الاهتمام، موجهاً نظره نحو الفضاء الواسع أمامه، لكن "ليساء" تابعت حديثها قائلة: "الجيش السوري أطلق صواريخ سكود الباليستية على مواقع المتمردين في سوريا، وهناك تقارير عن تصاعد العنف في عدة مناطق."

قطع الجد حديثها بنبرة حازمة ولكن لطيفة: "تركنا الحرب والدمار خلفنا لنجد بعض السلام هنا، فلا تدعينا نغرق في أخبارها مرة أخرى، أرجوكِ غيّري الموضوع."

تأملت "ليساء" وجه والدها للحظة، ثم ابتسمت ابتسامة حزينة وقالت: "أنت محق، دعونا نستمتع بهذه اللحظة بعيدًا عن كل ما يؤلمنا."

نظرت "عهد" إلى والدتها ثم إلى جدها، وشعرت بدفء العائلة يحيط بها رغم كل الصعاب. رفعت بصرها إلى السماء مرة أخرى، ورأت الألعاب النارية تنفجر بألوان زاهية، ولكن هذه المرة، لم تشعر بالخوف ذاته. ربما لأن وجود والدتها وجدها بجانبها منحها شعورًا بالأمان الذي كانت تحتاجه.

بدأت نسمات باردة تهب، معلنة قدوم ليلة شتوية أخرى. احتضنت "ليساء" ابنتها بقوة أكبر وقالت: "حان الوقت لنعود إلى المخيم، الليلة طويلة وغدًا يوم جديد."

نهض الثلاثة معًا، وساروا باتجاه المخيم بخطوات بطيئة. وبينما كانوا يمشون، تلاشت أصوات الألعاب النارية تدريجيًا، وحل محلها صمت الليل الهادئ. لكن في قلوبهم، كانت هناك أمنيات كبيرة لعام جديد يحمل معه السلام والأمل والعودة إلى الديار التي اشتاقوا إليها كثيرًا.

حياة بين الخيام

على أرض يكسوها الجليد، نصبت خيام بيضاء داكنة، حيث اختار أصحابها العودة بالزمن ألفًا وأربعمائة عام إلى الوراء، مفضلين هذه الحياة البدائية على حياة مدنية يكسوها الدمار. طُبع على الخيم شعار المنظمة العالمية لحقوق الإنسان، مذيلة بأرقام تميز كل خيمة عن الأخرى. لكن سكان المخيم وجدوا طريقة أسهل للتعرف على خيامهم، حيث استخدموا حبال الغسيل المعلقة بين الخيام، وكأنها جسور تربط بين أفراد قبيلة واحدة تكافح من أجل البقاء.

استيقظ الجد صباح ذلك اليوم على ضجيج يتسلل إليه من كل حدب وصوب، ليدرك أنه انتقل من عالم الحلم إلى واقع مرير. فرك عينيه ببطء، وبدأت معاناته اليومية بالاختيار بين قضاء الحاجة أو تناول الفطور. كان يعلم أن الانتظار أمام دورة المياه قد يستغرق ساعة أو أكثر، خاصة في وقت الذروة الذي يبدأ من الثامنة وينتهي في العاشرة صباحًا.

فكر في أن يعود إلى النوم هربًا من هذا العناء، لكن صوت "ليساء"، وهي تصرخ في ابنتها لتلحق بطابور الفطور، قطع عليه حبل أفكاره. تذمر الجد من حدتها مع ابنتها، فرفع صوته الرخيم قائلًا: "صباح الخير."

أجابت ليساء: "صباح النور يا أبتي."

قال الجد: "دعيها نائمة، لا توقظيها. يمكن أن تنتظري حتى أقضي حاجتي ثم تذهبي لجلب الفطور."

تلفتت ليساء إليه وقالت: "طابور قضاء الحاجة أطول من طابور الفطور، ولا يمكننا تركها وحيدة داخل الخيمة."

نظر الجد بعطف إلى عهد المستغرقة في نومها وقال: "اتركيها نائمة، سأجلس معها حتى تنتهي من طابور الصباح."

انطلقت ليساء مسرعة لتلحق بنصيبها من الخبز والزعتر قبل أن ينفذ، فالعيش في المخيم يخضع لجدول زمني صارم، حيث تُحدد مواعيد الأكل والشرب بدقة، تمامًا كما في الفنادق. لكن كميات الطعام كانت محدودة وفقًا لمعايير الأمن الغذائي لمنظمة الأمم المتحدة للطفولة (اليونيسف)، حيث إن تناول كميات كبيرة من الطعام قد يؤدي إلى التخمة، وأهالي المخيم لا ينقصهم المزيد من الأمراض.

في ظل الأرملة

تجلس أمل في ركن مظلم من غرفتها المتواضعة، تحمل طفلها الرضيع بين ذراعيها، تحاول تهدئته وهي تغالب دموعها. البيت الصغير الذي كان يمتلئ بالأمل والحب منذ بضعة أسابيع فقط، أصبح الآن مكانًا ثقيلًا بالذكريات والهموم. تتذكر أمل اللحظات الأخيرة مع زوجها، الشيشاني الذي جاء إلى قريتهم محاربًا، فارس أحلامها الذي آمن بقضية وقاتل من أجلها حتى آخر نفس.

كانت تتخيل حياتها معه مختلفة؛ كانوا سيبنون معًا مستقبلًا أفضل بعيدًا عن الظلم، لكن القدر لم يمهلهم. عائلتها لم تكن راضية عن هذا الزواج منذ البداية. والدتها كانت تصر على أن هذا الرجل لا يمكنه أن يمنحها الأمان، وكانت كلمتها دائمًا: "هذا الرجل سيتركك في النهاية وحيدة". وها هي الكلمات تتحول إلى حقيقة مؤلمة.

بعدما وضعت والدتها حملها وتركته، بدأت أمل تعيش صراعًا داخليًا. كانت تحاول أن تثبت لأمها خطأها، أن حبها وزواجها سيتغلبان على كل شيء، ولكن الآن، في هذه اللحظة، وهي تجلس وحدها بعد جنازة زوجها، بدأت تفيق على حقيقة مريرة: العالم ليس كما تخيلته، والأحلام الجميلة لا تدوم.

مع انتهاء مراسم العزاء، لم تجد أحدًا بجانبها. الجميع عادوا إلى حياتهم، تاركينها لتواجه مصيرها وحدها. هي الآن أرملة الشهيد، ولكن من سيهتم بها؟ من سيعيل طفلها؟ إذا كان زوجها قد قاتل في صفوف النظام، ربما كانت تستطيع طلب معاش لتعيش منه. لكن زوجها كان في الجهة المعارضة، الجهة التي لن تعترف بها الدولة ولن تمنحها أي دعم.

جلست على سريرها، تنظر إلى طفلها الذي بدأ بالبكاء مرة أخرى. تفكر في المستقبل الذي أصبح فجأة مجهولًا. لا تعرف ماذا ستفعل أو كيف ستواجه الأيام القادمة، لكنها تعلم شيئًا واحدًا: عليها أن تكون قوية من أجل طفلها، أن تجد طريقة لتعيش وتمنحه حياة أفضل، حتى لو كانت حياتها مملوءة بالصعاب والمحن.

ذكريات الشتاء في خيمة اللجوء

كان جسد أمل يسترخي على السرير، منهكًا وضعيفًا. بجانبها جلست ليساء، التي كانت تضع قطعتي قماش في وعاء الماء المثلج الذي كان بجانب السرير. غمست ليساء المنشفة في الماء المثلج، ثم وضعتها برفق على جبين عهد الذي كان ملتهبًا. همست عهد بنبرات ضعيفة: "لا بأس حبيبتي، إن شاء الله تتعافين وتلتحقين بالمدرسة."

كان الجد، الذي جلس على يسار عهد، يتابع المشهد بقلق. سأل: "هل هناك مدارس في المخيم؟" رفعت ليساء قطعة القماش عن جبين عهد، ثم عصرّت الأخرى قبل أن تقول: "أعتقد أن هناك مدارس تابعة للتعليم التركي. لذا، يجب عليها أن تتقن التركية قبل الالتحاق بالمدرسة في تركيا."

تركت عهد حديثهم وارجعت رأسها إلى الوسادة المبللة، مستسلمة إلى سُبات عميق. حاولت التحدث باللغة التركية، لكن لسانها كان عاجزًا عن التعبير. شعرت بصداع شديد، فرفعت ليساء رأس عهد عن الوسادة لتضع قطعة أخرى من القماش تحت رأسها، لتمتص العرق. قضت عهد ليلتها في حالة من النوم المتقطع، تستيقظ على وقع أقدام جدها الذي يسير في أرجاء الخيمة وكأنه نائم. نادته قائلة: "جدي؟"

سار الجد نحوها متمهلاً، ثم قال: "صباح الخير يا بنيتي. كيف حالك اليوم؟" تحدثت عهد بصوت مبحوح: "أين ذهبت أمي؟" أجابها الجد قائلاً: "أمك ذهبت لتحضير الفطور لنا."

تحركت عهد على الوسادة المبللة، ثم قالت: "سمعتكم تتحدثون عن الدراسة في المخيم، وأنها ستكون باللغة التركية." وضع الجد يده على جبينها لقياس درجة حرارتها، ثم قال: "لا أعلم، لكن والدتك تخمن أن الدراسة للأطفال في المخيم ستكون باللغة التركية." لاحظ الجد علامات القلق على وجه عهد، فقال: "لا تقلقي، هناك الكثير من المعلمين السوريين في المخيم. بالتأكيد سيشرحون لكم المناهج بالعربية."

نظرت إليه عهد وقالت: "لكني لا أفهم اللغة التركية." سمعوا تهاطل المطر، فابتسم الجد وقال: "لا عليك، إذا طلبوا منك إتقان اللغة التركية، فهي لغة سهلة جداً. كل ما تحتاجينه هو أن تقولي لهم 'مرحبا، أفندم، حضرتكم'."

قالت عهد ببراءة الطفلة: "يعني اللغة التركية تشبه العربية؟" ضحك الجد وقال: "بالطبع." ثم قرر تغيير مجرى الحديث قائلاً: "افتقدت رؤية المطر من نافذة بيتنا في حلب، وافتقدت رائحة القهوة الحلبية. كنت أحب القراءة والكتابة وأنا أحتسي القهوة بجانب نفس النافذة. منذ طفولتي، كنت أنتظر فصل الشتاء بفارغ الصبر للعب بالثلج والهرولة تحت المطر، لكن يبدو أن المطر هنا نذير شؤم لنا. إذا اشتدت الريح مع تهاطل المطر، قد نجد أنفسنا في العراء."

ثم سمعتهم وقع أقدام والدتها وهي تدخل إلى الخيمة، فبادرهم الجد قائلاً: "عذاب في كل شيء حتى في الحصول على بضعة أرغفة. ربي يرحمنا من كل هذا العناء. ناوليني الزعتر، لنأكله مع الخبز."

ردت ليساء قائلة: "أين الوجبات المغلفة التي يقدمها الجيش التركي؟" أجابته ليساء: "نفدت، فهي لا تتوافر بشكل يومي." ثم استرسلت في الحديث قائلة: "أهل المخيم يتندرون بأن الهند منعت احتفالات رأس السنة لهذا العام بسبب اغتصاب فتاة، كما أوقفت الفنادق والنوادي الليلية عن الاحتفال حداداً على روح هذه الفتاة."

واصل الجد قائلاً: "أليسوا بوذيين أو عباد بقر؟ لكنهم لا يزالون يمتلكون قلبًا ينبض بالحياة. أنا أتساءل أي دين يؤمن به 'الشبيحة' الذين 'لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة'؟ ستقولين لي أن الشبيحة مجرمون، أين العرب مما نعانيه؟ هل سمعتم أن ثلاثمئة مليون عربي أو يزيد أقاموا حداداً على أرواح السوريين؟ هل ينتظرون حتى يُباد الشعب عن بكرة أبيه ليعلنوا الحداد؟ ما نعانيه من إخوتنا العرب أمرّ من العلقم."

ثم سرحت أمل في خيالها بعيداً، وهي تلقم الخبز والزعتر. تذكرت عندما كانت لها أسرة مستقرة في حلب الشهباء، وكانت تطمح في مستقبل أفضل لها ولأسرتها. لكنها وجدت نفسها، في غضون سنوات قليلة، مجبرة على التشرد بعد سيطرة الجيش الحر أو داعش على المدينة العريقة. لم تستطع فك أسر زوجها بعد اعتقاله، حذرته من الشعارات الرنانة التي لا تحمل هدفًا محددًا.

لم تتحمل أن تعيش وسط الدمار الذي حل بمدينتها. ما تبقى من أهل وعمران كان يتم تجنيده أو دمجه في مجتمع غريب عنها. حذرت ابنتها من الزواج من مجاهد لا تعرف عنه سوى أنه جاء ليجاهد بصدق من أجل نصرة الشعب السوري. حاولت تثنيها، لكن ابنتها كانت تظن أن الفارس المغوار سينتصر ويخرج والدها من معتقله. تركت ابنتها في حلمها أو كابوسها، وقررت أن تأخذ ما تبقى لها من حلب القديمة، لتحمل معها ذكرياتها الجميلة وترحل إلى أي بلد تعيش فيه بعيدًا عن القصف والدمار.

سقطت دمعة من عيونها وهي تسبح في شريط الذكريات. سألها الجد: "أنت بخير؟" تململت ليساء قبل أن تنطق قائلة: "أنا قلقة على مستقبل ابنتي. ماذا لو مات عنها زوجها؟ ستصبح أرملة، وإذا اعتُقلت كأبيها، فعليها أن تواجه ردة فعل الناس بعد سجنها. المجتمع السوري لا يفرق بين البغاء والاغتصاب في هذه الحالة. عندما يخرج المعتقلون الرجال، يحتفى بهم كأبطال، لكن النساء في المقابل يجدن مجتمعاً يزدريهن ويشكك في أخلاقهن."

ثم تحولت دفة الحديث إلى عهد: "حبيبتي، لقد قابلت أم سليم اليوم في طابور الفطور، واتفقت معها أن تحضري دروس تقوية مع ابنها." سأل الجد عن طبيعة الدروس، فتمتمت ليساء قائلة: "يا أبتي، زوج أم سليم أظنه حقوقي، وسيعطي دروسًا بالمجان للولد إلى حين انتهاء مشكلة الالتحاق بالمدارس."

مسحت ليساء دموعها وقالت لعهد: "نأمل أن تعيشي حياة أفضل من حياتي."

درس في مخيم اللجوء

في مخيم اللجوء الذي لا يكاد يختلف عن صحراء قاحلة سوى بوجود الضجيج المزعج للأطفال الذين يملأون الطرقات، مشت عهد مع والدتها نحو خيمة أم سليم. الشوارع الضيقة المليئة بالتراب والضجيج جعلت من المشي تجربة شبيهة بالتنقل بين المقابر، لولا الأصوات الصاخبة التي تعبث بالهدوء المعتاد.

وصلت عهد إلى خيمة أم سليم بعد عشر دقائق من المشي المتعب، حيث استقبلتها والدتها بعبارة: "خذي هذه الدروس بجدية، فهي ستؤهلك للالتحاق بالمدرسة." دخلت عهد إلى الخيمة، التي لم يكن فيها سوى بعض الأدوات البسيطة، ولوحة بيضاء صغيرة عليها كلمات بالعربية. لم يكن هناك فصل دراسي كما هو معتاد، بل كان هناك والد يدرس ابنه اللغة العربية، وسينضم إليهم.

بدأ الأستاذ أسامة الديب، وهو شخص طويل نسبياً يرتدي بدلة بنية مهترئة، الدرس بابتسامة. "من أين نبدأ؟" قال أسامة، وهو يعتقد أنه يعقد محاضرة عن السياسة العربية أو الأدب العربي. كان أسامة يعيش في حالة من الانفصام عن الواقع، يحلم بالعمل في منظمة حقوقية، رغم أنه يعاني من الفقر مثل الكثيرين في المخيم.

سأل أسامة عهد: "كم عمرك؟" أجابت عهد بصوت خافت: "أربعة سنوات." قال أسامة: "جيد، أنت أصغر من سليم بثلاث سنوات. هل درست العربية في المدرسة في سوريا؟" قبل أن تجيب، أضاف: "على أي حال، سليم بحاجة لمراجعة بعض القواعد الأساسية، لذا سنعيد ما درسناه سابقاً."

ثم سأل سليم: "قل كلمة." بدأ سليم في التفكير، لكن أسامة قاطعه قائلاً: "ما كل هذا البطء؟" وكتب كلمة "المهاجر" على السبورة. نظر إلى عهد وقال: "قولي كلمة." عندما احتارت عهد في اختيار الكلمات، قاطعها أسامة: "أسرع!" وكتب كلمة "لاجئ" على السبورة. ثم قال: "ما الفرق بين المهاجر واللاجئ؟"

تلعثم سليم قليلاً، ثم أجاب: "المهاجر لم قمرية، واللاجئ لم شمسية." ضحك أسامة وقال: "أحسنت، لكن هناك فرق آخر. الفرق بين اللاجئ السوري والمهاجر السوري؟" ظل الأطفال محلقين به، غير مدركين لمحتوى الحديث، حيث أن جميعهم كانوا سوريين يعانون من نفس المشاكل.

استعرض أسامة معلومات عن الفرق بين اللاجئين والمهاجرين، مستشهداً بتعريفات من المفوضية السامية لشؤون اللاجئين. تحدث عن القانون الدولي الذي ينص على حماية اللاجئين وعدم إرجاعهم إلى أوضاع تهدد حياتهم. ثم أشار إلى المهاجرين الذين يختارون الانتقال لتحسين حياتهم، وليس بسبب تهديد مباشر.

أنهى أسامة الدرس قائلاً: "ما رأيكم، نحن لاجئون أم مهاجرون؟" أجاب سليم ببراءة: "لاجئون." ثم سأل أسامة: "كيف عرفت ذلك؟" قال سليم: "لأنه مكتوب على بوابة المخيم 'مخيم لاجئين'." تنحنح أسامة، وضع القلم جانباً، وقال: "هذا يكفي لدرس اليوم. أردت فقط أن نقضي أول حصة للتعارف."

****

في الصباح الباكر، دخلت أم سليم الخيمة تلهث، وجاءت إلي أسامه بسرعة، صائحة: "أسامه! هناك فرصة عمل لن تتكرر!" فرك أسامه عينيه بدهشة، وسألها: "ماذا حدث؟" أخذت أم سليم نفساً عميقاً، ثم قالت بسرعة: "لا أريد الجدال. مندوبو منظمة الأمم المتحدة للطفولة (اليونيسف) يسألون في الخارج عن معلمين متطوعين لتعليم أطفال المخيم مقابل ألف ليرة شهرياً."

فكر أسامه للحظة وسأل: "هل هي ليرة سورية أم تركية؟" وقبل أن ينتهي من سؤاله، قاطعته أم سليم: "أرجوك، أسرع! هذه الفرصة قد تكون مستقبلك. لا تدعها تفوتك، فهي قد لا تتكرر."

خرج أسامه مسرعاً نحو رجلين يرتديان معاطف زرقاء مكتوب عليها باللغة الإنجليزية اختصار منظمة الأمم المتحدة للطفولة "UNICEF". اقترب من الرجلين، وحيّاهما باللغة التركية برقة: "Merhaba." رد أحد المتطوعين بلغة عربية سليمة: "مرحباً. هل ترغب في العمل بمراكز التعليم المؤقتة التي تشرف عليها المنظمة؟"

أجاب أسامه: "أنا محامٍ مختص بحقوق الإنسان، و—" قاطعه المتطوع: "نحن بحاجة إلى مدرسين للغة والحساب، وليس حقوقيين. أو بشكل أدق، نحتاج إلى حاملي شهادات جامعية." ثم ناوله استمارة التقديم.

استلم أسامه الورقة مشمئزاً، مدركاً أنه سينتهي به المطاف مدرساً لأطفال المخيم، وهو ما لا يتناسب مع طموحه بأن يصبح محامي اللاجئين في المخيم. فكر ملياً قبل أن يملأ بيانات الاستمارة، ليس لأنه مقتنع بالوظيفة، بل لتجنب الشجار مع أم سليم. ملأ البيانات وذيّلها بتوقيعه، ثم سلمها للشخص الذي أعطاه الاستمارة.

قبل أن ينصرف، تذكر أسامه أن يسأل عن المناهج الدراسية التي سيقوم بتدريسها، فقال: "معذرة، هل هناك كتب دراسية يمكن الاسترشاد بها؟" قام المتطوع بتثبيت الأوراق في ملف التقديم ثم قال: "ابتسم إلى الكاميرا."

شَبَكَ أسامه أصابعه ورفع يديه إلى مستوى منخفض ليحافظ على "برستيجه" أثناء التصوير. بعد الانتهاء من التصوير، رد المتطوع على سؤاله قائلاً: "سيتم تدريس نفس منهاج التعليم السوري مع بعض التعديلات، وسيدرس أيضاً اللغة التركية للعاملين والطلبة، وذلك بالتنسيق مع الحكومة التركية."

نظر أسامه باستغراب وقال: "وهل سيتعلم الأطفال السوريون اللغة التركية؟" رد المتطوع بحزم: "الأطفال والكبار على حد سواء، طالما أنهم يدرسون أو يدرّسون في تركيا، فعليهم تعلم اللغة التركية."

ابتسم أسامه قائلاً: "وهل تعترف وزارة التعليم التركية بهذه الشهادة؟" نظر المتطوع إليه بطرف عينه وقال: "للأسف، الحكومة التركية لن تعترف بها، لكن الحكومة الليبية ستعترف بها!"

حاول أسامه أن يسأل عن علاقة ليبيا بسوريا وتركيا، لكن المتطوع قاطعه قائلاً: "من فضلك، لدينا الكثير من الطلبات نريد إنجازها اليوم. شكراً لتفهمك."

****

في ظلام دامس يقطعه النور الخافت لمصباح الضياء في وسط الخيمة، تجتمع الأسرة حول طاولة صغيرة لتناول وجبة العشاء التي لم تختلف كثيراً عن غيرها. عهد تتثاءب بتململ وتقول: "ليس لنا سوى هذا الطعام." ينظر الجد إليها بعينين يملؤهما الشفقة، ثم يقول: "لعلنا نتأسى بالنبي صلى الله عليه وسلم، فقد مرّ على أهل بيته الهلال تلو الهلال، ثلاث أهلة متتابعات، ولم توقد في بيته نار."

تنظر عهد إليه مستفهمة: "ولكن ما علاقة الهلال بالنار؟"

يجيب الجد: "تكملة الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يمر عليه ثلاثة شهور لا يتناول سوى التمر والماء."

تتوجه نظرها ليساء بتعجب قبل أن تتنهد قائلة: "لماذا لا تحدثها عن أن هناك من يرى أن الشقاء الذي نعانيه في المخيمات هو غضب من الله لما اقترفناه ونقترفه من ذنوب وموبقات هنا؟"

تغير معالم وجه الجد، ويقول غاضباً: "تعرفين شيئاً؟ إذا لم نمت جوعاً في هذا المخيم سنوات بسبب الكآبة،"

تنظر إليه متعجبة من كلمته ثم تقول: "تعرفين شيئاً؟ علينا أن نجمل الواقع البائس ونخدع هذه الصغيرة بأن ما نعانيه من ذل وهوان هو تأسٍّ بالنبي صلى الله عليه وسلم. وبالمناسبة، أين بات النفط العربي من سنة النبي صلى الله عليه وسلم؟ أترى أنهم لا يأكلون إلا السوداني؟ أنا أحدثها عن سنة النبي صلى الله عليه وسلم، إذا أتت الدنيا راغمة وزهدنا فيها طواعية وليس كراهية."

تأفف الجد قبل أن يقول: "لمَ لا نغير الموضوع؟" فتنتفض قائمة وتقول لعهد: "لا عليك، معك الحق يا ابنتي. نحن أيضاً سئمنا هذا الطعام لكن جبرنا عليه."

يسود الصمت لحظات قبل أن تواسيه عهد قائلة: "لا تحزن يا جدي."

يقول الجد: "أنا لست حزيناً، أمك معها حق، نحن صرنا في ذلة وهوان بسبب إخواننا العرب والمسلمين. عسى أن تنفرج هذه الغمة قريباً."

ثم يتنهد قائلاً: "كنت قد قرأت مقالاً يقول فيه الكاتب: الناس في الفتن أربعة أصناف. أولهم من يتحرى الحق وينصره، والثاني لا يقاتل لشخص أو لزعيم، فإن قاتل، فأنما يقاتل لمبدأ. والثالث رجل نهاز للفرص يقبع حتى إذا جاء وقت توزيع السلب، ظهر وطلب وغنم. أما الرابع، فهو أخبثهم، فهو لا يرتاح لهدوء الناس وطمأنينته، بل هو إذا نامت الفتنة أيقظها، وحرك العداوة والبغضاء بين الناس بما يخترع من أقاويل ويثير من كوامن، ويقول لهؤلاء ما يغضبهم ولآخرين ما يثيرهم، ويحرّف الكلم عن مواضعه ليبذر الشر، ويقول الناس ما لم يقولوا ليخلق الضغينة."

ثم تسأله عهد ببراءة الأطفال: "أي الناس نحن؟"

يبتسم الجد ثم يقول: "أرجو أن نكون من الصنف الأول الذي يتحرى الحق وينصره."

****

لكل وطن رائحة ليل خاصة به، غير أن شتاء المخيمات له رائحة أخرى. يأتي الليل بعد النهار ليعلن بداية الراحة والهدوء والسكينة، ولكن مع هطول المطر يرتجف أهالي المخيم من الخوف بدلاً من البرد. ترتجف عهد بجانب جدها في وجل شديد من صوت تهاطل المطر، فيضمها جدها إليه محاولاً تهدئتها. يفكر الجد أن يحكي لها حكاية لتخفيف فزعها، فيسألها: "تعرفين قصة سيدنا نوح؟"

أومأت برأسها وقالت: "نعم." ضحك الجد وقرر أن يقضي الليلة المريعة وهو يقص عليها قصة سيدنا نوح عليه السلام فقال لها:

لما بُعِث نوح عليه السلام كان قومه عاكفين على عبادة الأصنام، كما طغوا في أرض الله وأفسدوا فيها وتمردوا واستكبروا. ومع كلّ ذلك، استمر نوح عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله وترك ما كان يعبد آباؤهم من دون الله، حتى قضى فيهم تسعمئة وخمسين سنة. لكنهم مع ذلك لم يستجيبوا له ولم يؤمنوا به، ولم يستمعوا لنصحه لهم بأنهم إن استمروا على الكفر فسيأتيهم من الله عذاب أليم. فزادوا في طغيانهم واستكبارهم، واتهموه بالكذب، وقالوا إن من يتبعه هم فقراء القوم وضعفاؤهم الذين لا يُؤبَه بحديثهم، وأنكر شرفاؤهم نبوته وآذوه وكذّبوه.

ورغم كلّ ذلك لم يُبالِ نوح عليه السلام بكلامهم وتهديدهم له، بل استمر في دعوته لهم حتى استيأس منهم بسبب ازدياد طغيانهم واستكبارهم. فلجأ إلى ربه، فدعاه أن يهلكهم لطغيانهم وعتوهم وعدم استجابتهم لدعوته. فاستجاب الله تعالى لدعاء نبيه، وجاء الأمر إلى نوح عليه السلام بأن يصنع السفينة. قال الله: {وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِس بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ}.

عندما جاء وعد الله إلى قوم نوح وظهرت بوادر العذاب بتفجر الينابيع، وانفراج السماء بالمطر الغزير، أسرع سيدنا نوح عليه السلام بفتح السفينة ليُدخِل فيها من آمن برسالته، كما حمل فيها من كل حيوان زوجين اثنين؛ ذكراً وأنثى، ليستمر وجود جميع المخلوقات على الأرض. وبعد أن حملت السفينة من آمن من قوم نوح وغيرهم من هوام الأرض وأماكنها، ارتفعت المياه في

نواحي الأرض من شتى الجهات، واشتد المطر حتى التقت مياه المطر بمياه ينابيع الأرض، وارتفع الموج وازدادت شدته حتى عم اليابسة. فغرقت الأرض، ولم يبق من الحياة إلا من ركب السفينة مع نوح عليه السلام. وفي ذلك الوقت جرت سفينة نوح وسط الموج، وقد استمر الطوفان زمناً لا يُعرف مقداره، حتى جاء أمر الله بأن تكف المطار عن الانهمار، وأن تبتلع الأرض ما أخرجته من مياه، وأن ترسو السفينة وتستقر على جبل الجودي.

عندما انتهى الجد من قصته، نظرت إليه عهد مستجدية وسألته: "هل لنا من سفينة مثل سفينة نوح تنتشلنا من هنا؟"

ابتسم الجد ونظر إليها مواسياً ثم قال: "لو وجدت سفينة نوح اليوم، لأتبعت تسلسل هتلر الهرمي للجنس البشري، حيث يعتلي الغربيون قمة الهرم، ثم يتبعهم الشرقيون أو سكان اليابان والصين، ثم يقبع العرب في القاع. لم تفهم عهد ما كان يقصده، كان كل ما يعنيها هو أن تكف عن الارتجاف."

كانت الرياح تعصف بالسفينة بكل قوة، والموج يضرب جوانبها بلا رحمة. تمايلت السفينة كأنها تتراقص على أنغام موسيقى عاصفة، وقد بدت وكأنها مخلوق ضخم، يئن تحت وطأة البحر المتوحش. كلما استقرت السفينة قليلاً، اجتاحت موجة أخرى لتسحبها نحو الظلام. بدا كأنها تسير في دوامة، تتقاذفها الأمواج كما يتقاذف الطفل لعبةً في بحر من العواصف.

في أحد قاعات السفينة، كانت الأضواء الخافتة تسلط ضوءًا ضعيفًا على الوجوه المرتبكة. هنا، كانت العائلات تجتمع لتختبئ من هول العاصفة، لكن الانفلات والفوضى كانا يتسللان إليهم من بين ثنايا المكان. المخمورون كانوا في حالة من الثمالة المفرطة، يتراقصون في حلقة مجنونة، وكأنهم لا يشعرون بالخطر المحدق بهم. تجاذبتهم أمواج البحر والرياح العاتية كما يتجاذب البالون في الهواء، وكلما حاولوا التماسك، سقطوا من جديد في غياهب الثمالة.

أسامه الديب كان جالسًا على مقعد خشبي، مشدودًا نحو ورقة التفويض الخاصة بوضع اللاجئين. قلبه كان يعتصره القلق، وكان يفتش في نصوصها باحثًا عن أي بصيص أمل. لقد عُهد إليه مهمة توجيه المجموعة، لكنه شعر بالعجز عن تقديم أي مساعدة حقيقية، كما لو أن كل كلمة في الوثيقة كانت تتجسد في سراب لا يصلح لإنقاذ أحد.

في زاوية أخرى من القاعة، كان باهر غضبان جالسًا على الأرض، يغلق عينيه كمن يبحث عن مخرج من متاهة مظلمة. كان السجن الذي حبس فيه يشبه هذا البحر العاصف، وكان يائسًا كما كان في زنزانته، ينتظر أن تتحقق أي فرصة للهروب.

الأطفال كانوا يصرخون من الرعب، والنساء ينوحن ويبكين بصوت عالٍ. كانت الحالة العامة توحي بالفوضى، كما لو أن السفينة نفسها كانت تعكس الفوضى التي تجتاح قلوب الركاب. لم يكن هناك مكان للهدوء، وكل ما كانوا يشعرون به هو خوف مروع من المستقبل المجهول.

وعلى أحد الأركان، كان هناك كهل مسن يجلس على عتبة عمود، يربط حبلًا بيده اليسرى، بينما يرفع يده اليمنى إلى السماء. كانت عيناه تجولان بين أفق البحر والموج، وكأنه في انتظار معجزة. دموعه كانت تتلألأ في الضوء الخافت، وكأنه يناجي قوى خفية، طالبًا المساعدة من أعالي السماء. لقد كان في انتظار أمر ما، كأنه يتمنى أن تأتي النجدة من مكان غير مرئي.

بعد ساعات من الليل العصيبة، كان الشيخ المسن، ثابت اليقين، يتمتم بعبارات الحمد والشكر والحوقلة، كأنما أصابعه كانت في موعد مع الدعاء. بدأ السكون يدب في قلبه، متجاوزًا لوعته، ويشعر بشيء من السكينة. بدا وكأنه يشعر بلمسة رحمة في أوقات الظلام.

عندما انبلج الصبح، كان السكون قد عم الرجاء، وهدأت النفوس الملتاعة. الشيخ، الذي كان قرين العين مطمئن القلب، كان يقينه بحفظ الله يشعره بأنه على موعد مع النجاة.

هرع الناس ينزلون من السفينة سراعا، يتشبثون بنتوءات الأرض، يمسكون بالأشجار، ويلوذون بالحراش كأنهم غير واثقين من حقيقة النجاة. كان كل شيء يتغير، والرجاء في السلامة يعم المكان، ولكن الأثر العميق للأحداث السابقة ترك علامات لا تُمحى.

****

"أنين الأرض: أيام المخيم في طوفان المطر"

استفاقت عهد في صباح ذلك اليوم على صوت أمها المذعور، وهي تصرخ: "هذا ما كان ينقصنا! نحمد الله أننا لم نغرق مع المخيم. كل شيء أصبح خرابًا رسميًا!" كانت الأمطار الغزيرة تتساقط، مذكّرة أهل المخيم بأيام حلب الجميلة التي تحولت الآن

إلى ذكريات بعيدة. أمّا الآن، فقد تحولت أصوات المطر إلى نذير شؤم لأهالي المخيم، فتسببت في تحويل الأرض إلى مستنقع من الطين.

نظرت عهد حولها، فوجدت متاعهم المهلهل يطفو على سطح المياه. بدا أن الأمطار جلبت معها حلاً لمعاناتهم من نقص النظافة، لكن الوضع أصبح أكثر بؤسًا. أصبحت أرض المخيم مستنقعًا ضخماً من الطين، لم يكن من الممكن للأطفال أن يلعبوا بالطين بدل الثلوج التي اعتادوا اللعب بها في حلب. كان بإمكانهم بناء بيوت طينية وكُرات طينية ليلعبوا بها، لكن ما كان ينقصهم هو بابا نويل بعربته التي اعتادت السير على الثلج، ليقوم بتوزيع الهدايا الملفوفة بالألوان الحمراء. للأسف، ستغرق عربة بابا نويل في هذا الوحل عند وصولها، إن حدثت.

انقطعت جميع الطرقات الواصلة بين أهالي المخيم، وكانت الخيام الممزقة والمهترئة تحتاج إلى العمل ليل نهار لردم الخرقات، بعدما تحولت ثقوب التهوية إلى نوافذ تهوية وسط بحر من المياه والطين. كان صراخ أمها المستمر يملأ الأجواء، تطلب المساعدة وكأنها تنقذ عهد من هذا الوحل. كانت ليساء تريدها أن تجيب لتطمئن أنها لا تزال على قيد الحياة.

في زاوية أخرى من المخيم، كان الجد يتفحص المكتبة الصغيرة التي أصر على أخذها معه من حلب. كان يعرف أنها سلوى قلبه وسط أجواء المخيم الكئيبة، وقد أرهقهم حملها من حلب إلى المخيم. كان اختياره الهجرة البرية عبر الحدود التركية سببه ثقل المكتبة الذي يفوق قدرة أي مركب على حمله. تحسر الجد على تَلَف معظم كتبه التي قضى عمره في جمعها. صرخت ليساء قائلة: "الله يعوضنا جميعًا. الحمد لله أننا لا زلنا على قيد الحياة. كل شيء آخر يمكن تعويضه." شعر الجد بمزيج من الحسرة والاشمئزاز من الوضع الحالي، وتمنى لو كان مثل الطيور، يطير إلى السماء عندما تضيق به الأرض. لكن ليساء، وقد كادت تفقد صبرها، قالت: "في مثل هذه الظروف، ليس لدي استعداد لسماع الحكم والمواعظ."

خرج الجد من خيمته ليلقي نظرة على أهالي المخيم، فوجدهم جميعًا غارقين في الوحل. المخيم أصبح أكوامًا من الطين. نظر إلى بركة المياه حيث لمح الطفل "برهان" يحاول الوصول إلى خزان مياه الشرب، إلا أن البركة باتت تحول بينه وبين الخزان الذي اعتاد تعبئته قبل هطول الأمطار. ورأى أيضًا الطفل "بليغ" الذي انتشل فراشه من بركة أخرى تشكلت بعد الأمطار. حاول بعض الشبان إشعال عيدان من الحطب، ولكن الأمطار المستمرة حالت دون ذلك.

عاد الجد إلى خيمته، وسأل سؤالاً منطقيًا ولكن في غير وقته: "أين سنبيت الليلة؟" نظرت إليه ليساء وردت بسخرية: "ستقوم السلطات التركية باستقبال النازحين المتضررين في فنادق على نفقة الدولة حتى يتم تأهيل مخيماتهم." نظر إليها ثم قال: "ليس وقت سخرية، أبحث عن ثياب قديمة لأحرقها لأبعث الدفء في هذا البرد القارس."

****

كان على أهالي المخيم أن يصمدوا وهم دون مأوى، يفترشون الأرض مضجعاً والسماء غطاء. البرد كان قارساً، والسماء كانت تمطر بلا توقف. لم يكن لديهم من يقاوم هذا المنخفض الجوي سوى صبرهم، ولم يكن هناك من مأوى يحميهم من أمطار الشتاء الغزيرة.

الجد كان يرتجف من البرد، محاولاً أن يضم "عهد" إليه ليشعرها بالدفء. لم يكن هناك من وسيلة للحماية، سوى جسده الذي يحاول أن يحمي جسدها الصغير. أما ليساء، فقد التحفت بغطاء رأس من الصوف، ولكن البلل لم يذهب عنه. كان أخف الضررين، لكنها لم تستطع أن تخفي تذمرها.

"ليس لنا بلد آخر يأوينا في هذا البرد!"، قالت ليساء بمرارة. ثم استرسلت في حديثها عن ذكرياتها، قائلة: "أتذكر عندما كنت صغيرة، كنا نلعب لعبة بنك الحظ، نلقي بالنرد فنجد أنفسنا في مدينة مختلفة. ليتني أستطيع أن ألقي بالنرد وأجد نفسي في مكان آخر".

نظرت إليهم جميعاً فلم تجد من يشاركها هذا الوهام. لذا قررت أن تسأل أسئلة محددة: "كم عدد بلدان العالم وكم عدد اللاجئين؟"

فكر الجد في البداية أن يتركها تسترسل في حديثها الذي لا ينتهي، لكنه قرر أن يجيبها قائلاً: "أعتقد أن عدد البلدان حوالي مائة وخمسون، وعدد اللاجئين حوالي ثمانين مليون."

واصلت ليساء حديثها بفرضية خيالية تحل ببساطة أزمة اللاجئين حول العالم: "لو تم تقسيمهم بالتساوي على بلدان العالم، لن تسبب أزمة للدول."

حملق الجد في السماء، كان يشعر أن النقاش قد أصبح عبثياً، لكنه قرر أن يجيبها مجارياً: "ماذا تركت الزعماء السياسيون؟"

لم تفهم ليساء قصده فتقول: "عفوا، لم أفهم عليك."

تنهد الجد ثم قال: "عندما استقبلت دولة مثل ألمانيا مائة ألف لاجئ من أصل عشرة ملايين، ارتفع ضجيج المستشارة لتظهر ما تقدمه لمساعدة اللاجئين. وغالبية دول العالم تعاني من مشاكل الفقر وضعف الرعاية الصحية والتعليمية. يعني افتراض تقاسم اللاجئين بالتساوي لن يحل المشكلة."

حاولت ليساء أن تكمل الجدال، قائلة: "لكن ليس كل هذه الدول تعاني مما نعانيه من حرب ودمار."

تنهد الجد مجدداً ثم قال: "إذا كنت تفضلين الموت بسبب الجوع والمرض على الموت بالرصاص، فأنا أقول لك، لم تري غيرها."

سكت الجد لوهلة، ثم أضاف: "قد تكونين لم تري أسوأ مما عانيناه في سوريا، لكن الحياة دائماً فيها أمل. وقد يكون في المستقبل ما نأمله.

****

كان على أهالي المخيم أن يصمدوا وهم دون مأوى، يفترشون الأرض مضجعاً والسماء غطاء. البرد كان قارساً، والسماء كانت تمطر بلا توقف. لم يكن لديهم من يقاوم هذا المنخفض الجوي سوى صبرهم، ولم يكن هناك من مأوى يحميهم من أمطار الشتاء الغزيرة.

الجد كان يرتجف من البرد، محاولاً أن يضم "عهد" إليه ليشعرها بالدفء. لم يكن هناك من وسيلة للحماية، سوى جسده الذي يحاول أن يحمي جسدها الصغير. أما ليساء، فقد التحفت بغطاء رأس من الصوف، ولكن البلل لم يذهب عنه. كان أخف الضررين، لكنها لم تستطع أن تخفي تذمرها.

"ليس لنا بلد آخر يأوينا في هذا البرد!"، قالت ليساء بمرارة. ثم استرسلت في حديثها عن ذكرياتها، قائلة: "أتذكر عندما كنت صغيرة، كنا نلعب لعبة بنك الحظ، نلقي بالنرد فنجد أنفسنا في مدينة مختلفة. ليتني أستطيع أن ألقي بالنرد وأجد نفسي في مكان آخر".

نظرت إليهم جميعاً فلم تجد من يشاركها هذا الوهام. لذا قررت أن تسأل أسئلة محددة: "كم عدد بلدان العالم وكم عدد اللاجئين؟"

فكر الجد في البداية أن يتركها تسترسل في حديثها الذي لا ينتهي، لكنه قرر أن يجيبها قائلاً: "أعتقد أن عدد البلدان حوالي مائة وخمسون، وعدد اللاجئين حوالي ثمانين مليون."

واصلت ليساء حديثها بفرضية خيالية تحل ببساطة أزمة اللاجئين حول العالم: "لو تم تقسيمهم بالتساوي على بلدان العالم، لن تسبب أزمة للدول."

حملق الجد في السماء، كان يشعر أن النقاش قد أصبح عبثياً، لكنه قرر أن يجيبها مجارياً: "ماذا تركت الزعماء السياسيون؟"

لم تفهم ليساء قصده فتقول: "عفوا، لم أفهم عليك."

تنهد الجد ثم قال: "عندما استقبلت دولة مثل ألمانيا مائة ألف لاجئ من أصل عشرة ملايين، ارتفع ضجيج المستشارة لتظهر ما تقدمه لمساعدة اللاجئين. وغالبية دول العالم تعاني من مشاكل الفقر وضعف الرعاية الصحية والتعليمية. يعني افتراض تقاسم اللاجئين بالتساوي لن يحل المشكلة."

حاولت ليساء أن تكمل الجدال، قائلة: "لكن ليس كل هذه الدول تعاني مما نعانيه من حرب ودمار."

تنهد الجد مجدداً ثم قال: "إذا كنت تفضلين الموت بسبب الجوع والمرض على الموت بالرصاص، فأنا أقول لك، لم تري غيرها."

سكت الجد لوهلة، ثم أضاف: "قد تكونين لم تري أسوأ مما عانيناه في سوريا، لكن الحياة دائماً فيها أمل. وقد يكون في المستقبل ما نأمله.

****

"فوق سطح الغمر: صراع البقاء في قلب الشتاء"

النوم تحت غطاء من النجوم هو مصدر إلهام واسترخاء لعشاق التخييم والرحلات، لكن ليس إذا كنت مجبراً على عيشه في برد قارس. عندما تلتف الفضاء وتفترش الأرض في شتاء قارص بدون تدفئة، تكون المأساة شديدة، ولا يعرفها إلا من عايشها بنفسه.

انقطعت الكهرباء عن المخيم، فزادت معاناتهم بؤساً. أضيئت الشموع لتضفي لمسة من الرومانسية، لكن أهالي المخيم كانوا في أمس الحاجة إلى شيء أكثر من مجرد جو رومانسي؛ كانوا بحاجة إلى الدفء والبقاء. كان عالمهم في صراع دائم للبقاء على قيد الحياة.

تَرتَجِف أجسادهم من شدة البرد في ليالي الشتاء الطويلة، بينما يتضرع الشيخ الهرم بدعاء و أسنانه تطقطق من البرد: "اللهم ارحم من لا ملجأ له سواك، ربنا ارحم الصغير والكبير والفقير والمحتاج وارحمهم برحمتك، يا رب."

بعد عدة أيام، استيقظ أهالي المخيم على صوت حافلة النقل. في البداية، ارتابوا ظنًّا منهم أنها حافلة لانتشال ما تبقى من متاعهم بعدما جرفت العواصف الممطرة خيامهم. وقفوا جميعاً بقلوبٍ متوترة يراقبون وقوف حافلة مكتوب عليها بعض العبارات باللغة التركية، يتوسطها اسم المنظمة "IHH" اختصاراً لاسم هيئة الإغاثة الإنسانية وحقوق الإنسان والحريات.

توقفت العربات الثلاث، حاملةً معها بعض المساعدات لمواجهة برد الشتاء داخل المخيم. ما إن شاهد أهالي المخيم توقف السيارات حتى أسرعوا إليها، التفوا حولها، كل منهم يحاول الحصول على غطاء يحميه من برد الشتاء القارس. تزاحم الرجال وتدافعوا، وكأن شعار البقاء للقوى صالح في كل زمان ومكان.

ترقبت ليساء المشهد من بعيد، متمنية لو كان زوجها معها ليتولى عمليات توزيع المساعدات ويخفف عنها عبء التدافع. تطوع أحد شبان المخيم لتهدئة الجموع، لكن دون طائل. لم تنتهِ هذه الفوضى إلا بخروج ثلاثة شبان بسترات خضراء يصرخون في أهالي المخيم وكأنهم معتادون على التعامل في مثل هذه المواقف. قالوا بصوت عالٍ: "كل خيمة سيتم توزيع المساعدات عليها حسب البيانات الموثقة لدى الحكومة التركية."

ثم أعاد أحدهم الكلمات مرة أخرى بعد أن هدأت الجموع، قائلاً: "سأنادي على رقم الخيمة ليصعد شخص واحد لتسلم المعونة المخصصة لأسرته. إذا لم يلتزم بهذه التعليمات، سنوقف عملية التوزيع. طبقاً لتعليمات المنظمة، سنقوم بتوزيع غطاء، بطانية حرارية، وجبة غذائية، بالإضافة إلى أغطية بلاستيكية للتخييم فيها عوضاً عن الخيم التي أتلفت."

سمعت ليساء التعليمات، وانتظرت سماع رقم خيمتها لتستلم المعونة نيابةً عن عهد ووالدها. استغرقت عملية التوزيع قرابة الساعتين، لكن عندما حل المساء، عادت الأسرة إلى خيمتها وكل واحد منهم حصل على غطاء وبطانية تدفئة للوقاية من برد الشتاء.

****

"بين الطين والأمل: صمود المخيم في وجه العاصفة"

فوق طاولة صغيرة وسط الخيمة، عادت الكهرباء فجأة إلى المخيم، مثل ضوء بارقة أمل في قلب الشتاء القارس. شعر الجميع بالراحة وكأن شيئاً من الحياة التي كانوا يعرفونها قد عاد إليهم. الجد، الذي استعاد بعضاً من ذكرياته القديمة، جلس في زاوية خيمته وهو يحتسي كوباً من الشاي. كان يتذكر أيامه في خان الحرير بحلب، حيث كان يشرب الشاي مع أصدقائه وهو يستمتع بأحاديثهم وضحكاتهم. افتقد تلك اللحظات كثيراً، واستعاد في ذهنه منظر إبريق الشاي وهو يغلي على الحطب، ورائحة محال العطارة والعطور التي كانت تملأ السوق القديم.

الآن، الشاي لم يكن له نفس المذاق، حتى لو كان في نفس البريق الذي يغلي على الحطب. كان يشعر بحنين عميق إلى تلك الأيام. فركت عهد يديها بشدة لتدفئتهما، ثم نظرت إلى جدها وسألته ببراءة: "هل صحيح أن ما نعانيه في هذا المخيم بسبب ما اقترفناه من ذنوب؟"

نظر الجد إليها بحنان، ثم قال: "وهل لا يقترف الأغنياء الذنوب؟"

أضاف قائلاً: "يقول المولى عز وجل: (وَنَبْلُوكُمْ بِالشّرّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً)، يعني أن الغنى والفقر ابتلاء من الله عز وجل." ثم ابتسم وقال: "سوف أحكي لك حكاية."

بدأ الجد يروي: "يحكى أن ابنة هولكو، زعيم التتار، كانت تطوف في بغداد فرأت جمعاً من الناس يلتفون حول رجل. فسألت عن هذا الرجل، فتبين أنه عالم من علماء المسلمين. أمرت بإحضاره، وعندما مثل بين يديها، سألته: 'ألستم المؤمنين بالله؟' أجاب: 'بلى.' قالت: 'ألستم تزعمون أن الله يؤيد بنصره من يشاء؟' قال: 'بلى.' قالت: 'ألم ينصرنا الله عليكم؟' قال: 'بلى.' قالت: 'أفل يعني ذلك أننا أحب إلى الله منكم؟' قال: 'لا.' قالت: 'لماذا؟'

قال: 'هل تعرفين راعي الغنم؟' قالت: 'بلى.' قال: 'ألا يوجد مع قطيعه بعض الكلاب؟' قالت: 'بلى.' قال: 'ماذا يفعل الراعي إذا شردت بعض أغنامه وخرجت عن سلطانه؟' قالت: 'يرسل عليها كلبه ليعيدها إلى سلطانه.' قال: 'وكم يستمر في مطاردة الخراف؟' قالت: 'ما دامت شاردة.' قال: 'فأنتم أيها التتار كلب الله في أرضه، وطالما بقينا شاردين عن منهج الله وطاعته، فستبقون ورائنا حتى نعود إليه جل وعلا.'"

بقيت عهد صامتة لبرهة، ثم نظرت إلى جدها بعيون مليئة بالتفكير. كانت تراقب الضوء الخافت في الخيمة، وتفكر في مغزى القصة التي رواها جدها. كانت كلمات الجد تؤكد لها أن الابتلاءات ليست عقوبات بل هي اختبارات، وأن الصبر والعودة إلى الصراط المستقيم هما الطريق للخلاص

بعد الحكاية التي رواها الجد، أصبحت عهد مشغولة بالتفكير في معانيها، وسرعان ما انتقلت أفكارها إلى كيفية التعامل مع الظروف الصعبة التي يعيشونها في المخيم. مع عودة الكهرباء وتحسن الوضع قليلاً، بدأ أفراد الأسرة في محاولة استعادة جزء من حياتهم القديمة، حتى لو كان ذلك من خلال ذكريات الماضي وأمل التغيير.

في الأيام التالية، استمروا في تكييف أنفسهم مع الواقع الجديد، رغم الصعوبات. كانت الخيام المؤقتة التي حصلوا عليها بديلاً عن تلك التي دمرتها الأمطار، لكنها لم تكن كافية لحمايتهم تماماً من البرد. على الرغم من أن الحياة في المخيم كانت صعبة، بدأت عهد وأفراد أسرتها يكتسبون شيئاً من الأمل في التحسن، بفضل المساعدات التي وصلتهم والتعاطف الذي أبداه بعض المتطوعين.

على الصعيد الشخصي، قررت عهد أن تستغل الوقت في تعلم كيفية مواجهة التحديات، وأصبحت أكثر اهتماماً بمعرفة كيفية مساعدة الآخرين في المخيم. بدأت تساهم في توزيع المساعدات ومساعدة الأطفال في المدرسة المؤقتة التي أقيمت في المخيم. من خلال هذه الأنشطة، شعرت عهد بأنها تساهم في تحسين وضعهم، حتى وإن كان ذلك بطرق بسيطة.

كما استمر الجد في التحدث عن قصص وحكم من الماضي، مما ساعد في تقوية الروح المعنوية للعائلة وأعطاهم دفعة إضافية من الأمل والصبر. أما ليساء، فقد حاولت أن تظل إيجابية بالرغم من الصعوبات، وكان لحديث الجد وأملها في العودة إلى الوطن دور كبير في تحسين مزاجها.

مع مرور الوقت، بدأ أفراد المخيم يتعاونون بشكل أفضل، وأصبح هناك شعور أكبر بالتضامن بينهم. بدأت بعض المبادرات الصغيرة في الظهور، مثل تنظيم الفعاليات الاجتماعية والأنشطة الثقافية، والتي ساعدت في تحسين الروح المعنوية وتعزيز الشعور بالانتماء والأمل في المستقبل.

وفي النهاية، فإن القصة التي رواها الجد كانت تذكيراً بأن الصعوبات والابتلاءات هي جزء من الحياة، وأن الإيمان والأمل والعمل الجاد يمكن أن يساعدوا في التغلب على حتى أصعب الأوقات.

****

في صباح اليوم التالي، اجتمع الثلاثة لتناول إفطارهم المعتاد، ولكن عهد رفضت أن تتناول الطعام، مما أثار حفيظة ليساء. فثارت كعادتها، مشيرة إلى أن امتناع عهد عن الأكل قد يؤثر على صحتها، وأنها يجب أن تتناول طعامهم المعتاد من خبز وزعتر. لم يشأ الجد أن يعيد حديثه عن فضل القليل من الطعام والزهد في الحياة الدنيا، فترك المهمة إلى ابنته لإقناع عهد.

تمتمت ليساء بكلمات على وزن "عَنِيدَة مثل أبوك"، ثم تركت طاولة الطعام. سألَت عهد جدها المنهمك في تناول الخبز والزعتر: "جدي، متى يخرج أبي من المعتقل؟"

مسح الجد يديه في ملبسه ثم قال: "عندما تنتهي الحرب في سوريا."

سألت عهد: "ومتى تنتهي الحرب في سوريا؟"

ضحك الجد وقال: "هذا سؤال عجز المحللون السياسيون حول العالم عن إجابته." عرف أن عهد لم تفهم بعد أهمية المحللين السياسيين وما يملكونه من فراغ بالقنوات الإخبارية، فقرر أن يحدثها عن أبيها.

قال: "أباك كان يطمح لمستقبل أفضل لسوريا. لم يدر بخلده أن الأمور ستصل إلى هذا الحد." ثم قرر أن يطمئنها قائلاً: "إن شاء الله يخرج عن قريب."

نظرت إليه عهد وسألته: "يعني بعد كم شهر؟"

تنهد الجد وقال: "والله ما بعرف. دعيني أحكي لك حكاية."

بدأ الجد بسرد حكاية: "يحكى أن فتاة انطلقت تجاه لص هارب ودفعت اللص، فالتفت إليها مغضباً ثم هرول وراءها حتى أمسك بها وأوجعها ضرباً، ثم أخرج شفرة حادة شق بها وجهها الناعم لتكون عبرة لمن تسول له نفسه فعل مشابه. هوت الفتاة على الرض بعد أن صرخت صرخة مدوية فالتف الناس حولها – بعد أن هرب اللص – حملوها ليذهبوا بها إلى مشفى قريب لتضميد جراحها، وأخذوا يعاتبونها: 'لماذا فعلتِ ذلك بنفسك؟'، 'هذا مجرم لا قبل لك به'، 'لم تضيعي مستقبلك؟' كانت كلماتهم أشد فتكا من شفرة اللص، لأنهم أرادوا أن يميتوا ضميرها. لقد زعزعت هذه الفتاة طمأنينة الضمير لدى الجموع الواقفة، فتحدث أحد الحاضرين إليها قائلاً: 'لقد خسرتِ كل شيء، لم تمسكي باللص، خسرتِ جمالك، فما جدوى ما قمت به؟'

ثم قال لها: 'هل توافقين على الرأي؟' فأجابت بهز الرأس. ثم أردف قائلاً: 'لقد عاقب اللص الفتاة لأنها كدرت صفو ضمائر المجتمع. لولا الصرخة والوجه الدامي، لما حفر المشهد في ذاكرة الناس، ولما شعروا بأنه كان يجب عليهم أن يفعلوا شيئاً. الفتاة لم تكن تطارد اللص، بل كانت تطارد ضمائر المجتمع، كانت تقاوم صمت المجتمع. لم يكن سلاح والدك سوى سلاح القوة النفسية الهائلة، وهي وحدها لا تكفي لوأد الظلم، لكنها كفيلة بإثبات إنسانيتنا.'"

قطعت ليساء حديثهم وقالت: "ما ناقص غير هذه الطفلة الصغيرة تعتقل أو تتزوج مجاهد. بال عليك، خلينا من هذه النظريات التي أهلكتنا." ثم سحبت عهد من يدها وقالت: "تعالي، اغسلي يديك."

****

"درس في الحماية والتعلم"

أسامة الديب، رجل في منتصف العمر يرتدي بزّة مميزة، يقف أمام مجموعة من الأطفال، بينهم سليم وطفلة صغيرة. الأجواء في الخيمة مليئة بالضوء الخافت والبرودة التي اخترقت الجدران القماشية.

أسامة يبدأ بتلاوة أبيات شعرية بصوت هادئ ومتأمل، محاولة لتحفيز الأطفال على طلب العلم وتعريفهم بأهمية المعرفة.

أسامة
(بصوت ملؤه الحماس والوقار)
"وليس الغنى إل غِنَى العلم إنه * لنور الفتى يجلو ظلمَ افتقارهِ
ول تحسبنّ العلمَ في الناسِ منجيا * إذا نكبت أخلقُهم عن منارهِ
وما العلمُ إل النورُ يجلو دجى العمى * لكن تزيغُ العينُ عند انكسارهِ
"فما فاسدُ الخلقِ بالعلمِ مفلحا * وإن كان بحراً زاخرا من بحارهِ

بعد الانتهاء من الأبيات، يبتسم أسامة للأطفال ويبدأ بالدرس العملي.

أسامة
"الآن نبدأ الدرس. بما أنكما في عمرين مختلفين، سأختار درساً يسهل عليكما فهمه. درسنا اليوم يتحدث عن الفارق بين التاء المبسوطة والتاء المربوطة."

.أسامة يكتب على لوح خشبي صغير

أسامة
"التاء المبسوطة (ت) تأتي في آخر الكلمة، مثل: بنت، أخت، نبات. أما التاء المربوطة فتأتي في نهاية الكلمة أيضاً، مثل: ".الحماية الدولية، الحماية المؤقتة

.سليم، أحد الأطفال، يرفع يده ويبدو عليه الحماس للاستفسار. أسامة يبتسم ويمد يده لتشجيع سليم على طرح سؤاله

سليم
""ولكن، ما علاقة هذه التاء بمفهوم الحماية؟

أسامة يحاول توضيح الفكرة، لكنه يجد نفسه يغوص في تفاصيل معقدة حول الحماية الدولية والحماية المؤقتة، وهو ما يسبب .الحيرة بين الأطفال

أسامة
"إن الفارق بين الحماية الدولية والحماية المؤقتة يكمن في الأسس القانونية. الحماية الدولية ترتكز على حقوق الإنسان الأساسية، ".مثل عدم الترحيل القسري والحقوق السياسية والاجتماعية

.تدخل أم سليم، وهي امرأة في منتصف العمر، بصوت عالٍ ومعبّر، مقاطعةً أسامة

أم سليم
""ما علاقة هذه المصطلحات بمادة الدرس؟

.أسامة يحدق في الأرض قليلاً، يلهث للعثور على كلمات مناسبة للرد، وكأنه يواجه مفتش اللغة العربية

أسامة
(بصوت ضعيف)
"."من المهم أن نعرف حقوقنا كلجئين. المعرفة بحقوقنا قد تكون سبلاً لفهم كيفية مواجهة التحديات

.سليم ينظر إلى أسامة، ثم إلى أم سليم، ويبدو على وجهه علامات التفكير

سليم
""هل ستشرح لنا أكثر عن الحقوق التي نتحدث عنها؟

.أسامة يبتسم ويعيد تركيزه على الأطفال، محاولاً تبسيط المعلومات بأمثلة بسيطة

أسامة
"بالطبع، الحقوق التي نتمتع بها كلاجئين تشمل الحماية من العنف والظروف الصعبة. إنها ليست مجرد كلمات، بل ضمانات ".لأمننا وسلامتنا

.أم سليم تكتفي بالنظر باهتمام، ثم تبتسم بلطف، ويمتلئ الجو في الخيمة بشعور من الأمل والإلهام

.اللقطة تُختتم بالأطفال وهم يستمعون بتركيز، بينما أسامة يواصل الشرح بثقة متزايدة

****

"سجون الدنيا وسجون المخيم"

استفاق أسامة الديب على صياح صديقه باهر سرحان، الذي زار المخيم مرة أخرى لتلبية احتياجات أهاليه. باهر كان يعرف المخيم جيدًا، فهو يزورهم بشكل دوري لتوصيل الرسائل إلى العائلات أو المعتقلين، وأيضًا لشراء بعض البضائع السورية التي يفتقدها المقيمون في المخيم. تذكر أسامة صوت زميله من كلية الحقوق، فخرج بوجه عابس، عازمًا على اللحاق به قبل عودته إلى سوريا.

عندما رأى باهر أسامة، ضحك وقال: "أنا لست على عجل، اغسل وجهك ثم نتحدث."

دخل أسامة إلى خيمته ورش بعض الماء على وجهه ليزيل آثار النوم، ثم خرج مرة أخرى. قال: "تحب نجلس هنا أم في الصالون؟"

ضحك باهر وقال: "لا، خلينا في البلكون." ثم أردف: "كيف حالك في المخيم؟"

تنهد أسامة وقال: "الحياة بدون عمل في هذا المخيم تبلد الحواس. اليوم ليس له طعم، ليله كنهاره."

قال باهر: "لا زلت تبحث عن عمل؟"

فرك أسامة فروة رأسه وقال: "يعني تقدر تقول عمل مؤقت. أنا أعمل مع منظمة اليونسيف، يحتاجون لمعلمي لغة عربية من أهالي المخيم. أنت تعرف أن هذه الوظيفة لا تناسب مؤهلاتي ولا طموحاتي، ولكن ما باليد حيلة."

قال باهر: "معلش. هل تفكر في العودة إلى سوريا؟"

انفعل أسامة وقال: "تريدني أن أعود إلى السجن؟"

تفاجأ باهر من ردة فعله وقال: "هوّن عليك يا صاحبي، ولماذا كل هذا الانفعال والغضب؟"

ثم حاول أن يقنعه قائلاً: "مهل؟ هل سوريا وحدها سجناً؟ ألم يتحول العالم بأسره إلى سجون؟ ألست تعلم أن الاستخبارات الأمريكية تدير مئات السجون في أماكن متعددة من العالم تحت ذريعة 'مكافحة الإرهاب'؟ ألم تعود سياسة رفع الأسوار وبنائها خوفاً من الهجرة؟ أليس وقوف ملايين اللاجئين والمهاجرين على الحدود نوعاً من السجون التي نبنيها في وجوه بعضنا البعض؟"

حملق أسامة في باهر ثم قال: "برافو، يعني أنت مقتنع بكل ما تقوله. أنا لا علاقة لي بسجون الولايات المتحدة، أنا متيقن أن ليس لي مستقبل في سوريا، ولن أعود أبداً إلى سوريا."

ساد الصمت لحظات، ثم ربت باهر على كتف أسامة وقال: "الحياة في سوريا ليست مثالية، كما أن الحياة في المخيم ليست مثالية."

قال أسامة: "خلينا من هذا الحكي، صديقة زوجتي زوجها اعتقل منذ سنتين، هل يمكنك أن تعرف بمساعدة علاقاتك إذا كان حيًّا أم ميتًا، ومتى سيخرج من المعتقل؟"

فكر باهر قليلاً ثم قال: "لكن هذه الأمور تحتاج إلى أموال."

قال أسامة: "كم المبلغ الذي تريده؟"

قال باهر: "ليس لي، معرفة حال المعتقل تحتاج إلى ألف دولار، وإذا أردت أن يخرج، عليك أن تدفع ثلاثة آلاف دولار، ونقله وتسليمه إلى أسرته في المخيم يعني خمسة آلاف دولار."

ضحك أسامة وقال: "والله يا أخي، هذه خدمة خمس نجوم، يعني لكل شيء تسعيرة مختلفة."

قال باهر: "والله يا أخي، هذا ما أعرفه وأنا فاعل خير."

****

في المساء، جلست ليساء تحتسي الشاي بصحبة والدها وعهد، وتذكرت جلستها بشرفة المنزل بصحبة زوجها وابنتها الكبرى "أمل". قررت أن تشاركهم ذكرياتها عن حلب وما تفتقده منها، فقالت:

"أفتقد بشدة الجلوس في شرفة المنزل بعد العشاء، أيام ما كان عندنا منزل وشرفة. اليوم الحمد لله صرنا نعيش في شرفة، كنت أتحايل على زوجي باهر لنظل نجلس في الشرفة كل مساء لنتناول الشاي. الحمد لله أصبحت أسكن في العراء، الواحد شبع من الجلوس في الطل."

نظر الجد إليها وقال: "بال عليكي، كفاك طاقة إيجابية."

نظرت إليه بتعجب وقالت: "منين نجيب طاقة إيجابية؟ يعني المفروض أتحدث عن الحياة في المخيم على أنها حياة مرفهة، وعلى أننا سائحون نتفكر في ملكوت الله؟"

تذمر الجد وقال: "خلص، خلينا من هذا الحكي. بمناسبة ذكرياتك الحلبية، ما أكثر شيء تفتقدينه من سوريا؟"

قالت: "أهلي، زوجي، ابنتي."

ثم سألت: "وأنت يا أبي، ما أكثر شيء تفتقده من حلب؟"

فقال بتلقائية: "مكتبتي."

ضحكت بصوت عالٍ وقالت: "أكيد عم تمزح. يعني نجيب مكتبتك إلى العراء لتأكلها الديدان؟ حينها ستشعر بالسعادة."

تنهد الجد وقال: "معك حق، أفتقد المكان الذي فيه مكتبتي. لعلمك، الكتب هي بشرٌ صاروا كلمات وصورًا وضعت بين غلافين، لذلك أصبحت المكتبة جزءًا من حياة البشر. الكلّ دوّن حياته ومدوناته على ورق، لذا كان من الطبيعي أن يكونوا معنا، ليس بالضرورة في البيت لكن في الحياة. المكتبة ضرورة للبشرية، فهي المكان الذي يحوي حياة البشر، والكتاب ليس تعليمًا وقراءة وتسليّة فقط، بل هو حياة كاملة تعيش، والإنسان كائن اجتماعي يعيش مع الكتب وبينها."

قالت: "تعرف شيء؟ أسامة الديب، زوج أم سليم، يتحدث مثلك بالضبط. مقتنع أنه سيأكل الشهد من قراءة الكتب. يا أبي، هذه الكتب لا تسمن ولا تغني من جوع، يعني كل من لديهم أموال يقرأون كتبًا، لذلك صار لديهم مال. يشتغلون وربنا يرزقهم. مشكلة زوجي وأسامة أن دراستهم جعلتهم يعتقدون أن العالم مثالي وأن ما قرأوه في الكتب سينفذونه على أرض الواقع."

رد الجد: "والله يا بنتي، مشكلتك أنك لا تؤمنين إلا بالحياة المادية."

ضحكت ليساء وقالت: "على أساس إنني اعتدت العيش في قصور. أنا ذقت المرّين من هذه النظريات. وفي الأخير، زوجي معتقل ونحن نعيش على هامش الحياة."

ثم أردفت: "خلينا من هذا الحكي، لا يقدم ولا يؤخر. لقد أخبرتني أم سليم اليوم أنه بإمكاننا دفع أموال عبر وسطاء لجلب معلومات عن مكان المحتجزين وحالتهم. الاستعلام عن المحتجز بألف دولار، وتسليمه إلى أسرته بخمسة آلاف دولار."

قال الجد: "هل هذا السعر شامل مصاريف الشحن والتوصيل؟"

لم تجد ليساء ردًا، ونظر إليها الجد متشككًا وقال: "كيف يمكننا الوثوق بهؤلاء الوسطاء، أو بالحري، من أين نحصل على المال؟ ونحن نعيش على الكفاف بعد أن نفد المال الذي كان لدينا."

فقالت بتردد: "لماذا لا نبيع لوحات الفسيفساء؟ أليس هذا تراثًا وله ثمن؟"

رد عليها الجد: "عندما يبيع المرء تاريخه وتراثه، فلا ترجى منه خيرًا ولا تنتظر أمل. هذه اللوحات نقشت في فترة العصر الموي."

فردت عليه: "يا أبي، لا زلنا نتحدث عن الشعارات الرنانة. أعلم أننا ورثناها كابرًا عن كابر، لكن نحن الآن في أمس الحاجة إلى مساعدة مالية لحل مشاكلنا أو إصلاح أمورنا."

انتفضت ليساء من مجلسها وقالت لهم: "تصبحون على خير."

نظر الجد إلى حفيدته بنظرة ملؤها الشفقة وسألها: "هل تشتاقين إلى والدك؟"

ردت عهد بتلقائية: "لم أره بما فيه الكفاية. تركني وأنا عمري سنتان."

تنهد الجد ثم رفع يديه بالدعاء وقال: "اللهم لنا غائب، اللهم رده لنا كما رددت يوسف ليعقوب، واشفه يا الله، ورده لأهله وابنتيه ووطنه عاجلًا غير آجل، آمين."

ثم التفت إلى حفيدته وقال: "إذا كتب لك العودة إلى الوطن، فقد تركت في بيتنا بحلب مكتبة صغيرة. كنت أشتري كتبًا أكثر من قدرتي على القراءة، كونت مكتبة تشتمل على كثير من المصادر والمراجع مثل: الغاني للصبهاني، والعقد الفريد لابن عبد ربه، والذخيرة لابن بسام، ونثر الدر للبي، ومجموعة ابن تيمية في 37 جزءًا، ومعظم كتب ابن قتيبة، والعمدة لابن رشيق،

ومجموعة من المعاجم القديمة مثل: تهذيب اللغة للزهري ولسان العرب لابن منظور، ومجموعة من المعاجم الحديثة، وتفسير الطبري، والزمخشري، وابن عاشور (شيخ الإسلام في تونس)، وابن كثير، وغيرها كثير، ومجموعة من كتب الحديث النبوي وشروحها مثل فتح الباري لابن حجر، ومعظم كتب الأدب القديم مثل كتب الجاحظ وصبح العشى للقلقشندي، وديوان مهيار الديلمي في أربعة أجزاء في مجلدين كبيرين، إلى جانب كتب المحدثين ودواوين معظم الشعراء القدماء والمعاصرين. عليك العناية بها ما أمكن إذا كتب لك العودة إلى سوريا."

كان لعلماء المسلمين دور رائد أيام الخلافة العباسية، وتعرفين عندما هاجم التتار عاصمة الخلافة العباسية بغداد، والتي كانت من أشد مدن العالم حصانة، بأسوارها القوية، جاء القائد التتري "كتبغا" يحيط بالمدينة، وأسقط السور الشرقية لبغداد، وتوجه ورجاله إلى خيمة هولكو، وقتل وفد الخلافة بكامله ولم يبقَ إلا الخليفة، ألقى أهل بغداد السلاح، وانساب جنود هولكو في الشوارع، ينهشون المسلمين، وسالت الدماء بكثرة، وقتل الرجال والشيوخ والنساء والأطفال الرضع. استباح المغول بغداد أربعين يومًا، ولم ينجُ من هذه المذبحة سوى القليل، وأغلبهم كان ممن اختبأ في البارات وأقنية المجارير والوساخ، وأقدم بعض الناس على الاختباء في الخانات والدكاكين وأقفلوا الأبواب على أنفسهم، فكان المغول يكسرون الأبواب أو يحرقونها، ويقتحمون تلك الأماكن ويقتلون من فيها، وقام بعض هؤلاء بمحاولة الاحتماء على الأسطح، فكان المغول يصعدون وراءهم ويذبحونهم، فتسيل دماؤهم في المزاريب إلى الزقاق. ثم أتلف جنود التتار الكتب القيمة في مكتبات بغداد التي أفرزتها العقول النيرة، حتى إنهم ملأوا نهر دجلة بالكتب وجعلوها جسورًا لخيولهم، فكانت لكثرتها جسرًا يمرون عليه ركابًا ومشاة، حتى يقال إن ماء نهر دجلة تحول إلى الأحمر والأزرق بفعل دماء القتلى وحبر الكتب التي أغرقت النهر.

******

في المساء، دخلت عهد إلى خيمتها بصحبة جدها، الذي قرر أن يروي لها حكاية عن التراك. بعد أن تجاذبا أطراف الحديث، سألت عهد جدها: "متى تبدأ الدراسة؟" رد الجد: "قريباً، طالما بدأوا في جمع بيانات المدرسين بالمخيم." ثم سكتت لبرهة وقالت: "لماذا لا يتحدث التراك العربية؟"

ضحك الجد وأجاب: "لأنهم ببساطة ليسوا من أصل عربي. تريدين أن أروي لك حكاية عن التراك؟"

أجابت عهد بابتسامة: "بالتأكيد."

قال الجد: "كان بنو أمية من كبرى قبائل مكة، ومن السادة في قريش. قبيلة بني أمية كانت من أهم القبائل ذات النفوذ في مكة، وجدهم هو أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وهو الجد الأكبر لبني أمية. وكانت أول قبيلة مسلمة حاكمة في تاريخ الإسلام، حكمت ما بين عام 661م إلى 750م. كان من تقاليد بني أمية العصبية للعرب، واستهجان من عداهم، والاعتزاز بالدم العربي إلى أقصى حد. كانوا يستهينون بغيرهم مهما بلغوا من المجد، لكن بعد أن آلت الخلافة العباسية إلى المعتصم بعد وفاة أخيه المأمون سنة 218هـ، بدأ المعتصم يشعر بعدم الثقة في جنود بغداد من العرب بسبب كثرة الاضطرابات التي كانوا يثيرونها."

استمر الجد في روايته: "كانت أمه، أم المعتصم، تركية تُدعى ماردة، وكان في طباعه الكثير من طباع الأتراك من القوة والشجاعة والاعتداد بقوة الجسم. فدعته العصبية التركية إلى التفكير في الاستعانة بالعنصر التركي وألف جيشه منهم، لأنهم كانوا يمتازون بالقوة والشدة. غير أن هؤلاء الأتراك لم يكونوا مثقفين، بل كانوا شبه أميين، وكانت مقدرتهم الفكرية ضعيفة. وقد خصّ المعتصم الأتراك بالنفوذ، فقلدهم قيادة الجيش وجعل لهم مركزاً في مجال السياسة والحرب، وحرم العرب مما كان لديهم من قيادة الجيوش."

أضاف الجد: "أدت سياسة استخدام الأتراك في الجيش وإيثارهم بالمناصب العالية على العرب إلى نفور العرب من تأييد العباسيين، خاصة بعد أن أهمل شأنهم وحرموا من الرزق الذي كان لهم. لذا يقال أن أهل الخير اجتمعوا على باب المعتصم وقالوا: 'إما أن تخرج من بغداد، فإن الناس قد تأذوا بعسكرك، أو نحاربك.' فقال المعتصم: 'كيف تحاربوني؟' قالوا: 'نحاربك بالسهام السحر.' فقال المعتصم: 'وما سهام السحر؟' قالوا: 'ندعو عليك.' فقال المعتصم: 'لا طاقة لي بذلك.'"

نظرت إليه عهد وقالت: "ثم ماذا حدث؟"

ضحك الجد وقال: "بعدها، ترك الأتراك الخلافة، ولكنهم استمروا في الإمساك بزمام الأمور لفترة طويلة."

كانت عهد مستغرقة في حكاية جدها، تفكر في التغييرات الكبيرة التي مرت بها التاريخ وتأثيرها على حاضرهم.

******

"شبح الأمل"

في الظلام الذي يعم الخيمة، عهد تتقلب على سريرها، تغرق في كابوس مخيف. ساقاها تتحركان بعنف، كأنها تجري في منامها، ثم فجأة تسقط على الأرض، لتجد نفسها تحت السرير.

الضوء الخافت من الفجر يتسلل عبر الشقوق، لكنها لا تلاحظ ذلك، لأن صرخات الانفجارات وصرخات الأطفال المصابين في حلمها تملأ الأجواء. تتدفق الدخان من مكان قريب، تتقدم نحو المدرسة، وعندما تصل، تواجه مشهداً مرعباً: أطفال ممددون على الأرض، جثث غارقة في الدماء، وبعضهم مفقود، بينما الأهل يركضون في محاولة يائسة للعثور على أطفالهم. الرعب يتجسد في كل مكان.

تستفيق عهد من حلمها المفزع، وتنهض من فراشها، تلهث وهي تبحث عن أمها، تنادي بصوت مفعم بالخوف. تسرع نحو فراش والدتها، تلمسها لتطمئن، تحمد الله عندما تجدها بخير، وتقبل وجنتيها برقة.

ليساء، التي كانت نائمة بجوارها، تسألها بلطف: "ماذا حدث؟"

ردت عهد، وقد غمرتها الدموع والخوف: "رأيت انفجارات ودخان بالقرب من منزلنا في حلب. كان الأطفال مصابين وماتوا."

ليساء تسعى لتهدئة ابنتها، تحاول إخفاء القلق عن وجهها، وتقول: "لا داعي للقلق، حبيبتي. إذا رأت الفتاة في منامها ناراً تشتعل في المنزل، فهذا يدل على اقتراب موعد زواجها. وإذا كانت النار متوهجة وشديدة، فهذا يعني أنها ستتزوج بعد قصة حب قوية."

عهد، وهي لا تزال تعاني من تأثير الكابوس، تنظر إلى والدتها بعينين مملوءتين بالدموع وتسأل: "يعني هذا ليس كابوساً حقيقياً؟"

تضمها ليساء إلى صدرها بحنان، وتقول: "إن شاء الله، ليس كابوساً. حاولي أن تنسي الحرب في سوريا وفكري في مستقبلك. الأمور ستكون أفضل، ونحن هنا معاً."

في أحضان والدتها، تبدأ عهد في الهدوء، محاولاً نسيان الرعب الذي عاشته في منامها، وتبدأ في التفكير في الأمل والتفاؤل رغم الظروف القاسية التي تواجهها.

****

استيقظت ليساء في الصباح الباكر، وأشعة الشمس الأولى تتسلل عبر شقوق الخيمة. نهضت بصمت، وارتدت ملابسها البسيطة، ثم خرجت وهي تحمل غالوناً فارغاً بسعة 20 لتراً. توجهت بخطوات متثاقلة نحو الخزان الذي يشترك فيه سكان المخيم للحصول على الماء. كانت الخيام الأخرى قد بدأت تستعيد حركتها، ولكن الهدوء لا يزال يلف المكان.

عادت ليساء إلى خيمتها محملة بالماء، وبدأت في الأعمال الصباحية. غسل يديها وجهزت الفطور لعهد ووالدها. جلست على طاولة الإفطار، وسعت جاهدة لتحفيز عهد على تناول طعامها. كانت تحاول تجربة طريقة جديدة لشد انتباه عهد.

ليساء: "تعرفي حبيبتي، الدراسات أثبتت إن الناس اللي ما يتناولوش وجبة الفطور بيكونوا أكثر عرضة للمجاعة."

عهد: (بفضول) "وما هي المجاعة؟"

ليساء: (بتجرد من الصبر) "المجاعة يعني نقص البروتينات والفيتامينات، وكده."

عهد: "وما هي البروتينات والفيتامينات؟"

تجهم وجه ليساء، وتبددت صبرها.

ليساء: "ما بعرف، إذا أكلتي راح تكوني بصحة جيدة، وإذا ما أكلتيش، راح تصابي بالمرض. اعملي اللي بدك."

في المساء، جلست ليساء وعهد ووالدها خارج الخيمة. استمعوا إلى نشرة الأخبار عبر راديو بي بي سي العربية، وقد أدار الجد مؤشر الصوت ببطء ليستمعوا بوضوح. بدأ البث، وعُرضت الأخبار.

أعلنت النشرة أن مجلس الجامعة العربية في القاهرة قرر تأجيل منح مقعد سوريا إلى الائتلاف الوطني السوري، وأن القضية ستطرح على الدورة 141 للقمة العربية المقررة في الكويت نهاية مارس. كانت هناك خلافات حول أحقية الائتلاف في شغل المقعد السوري في ظل عدم سيطرته على الأراضي السورية.

ليساء: (بصوت مرتفع) "يعني المشكلة كلها هي مقعد سوريا الفاضي في الجامعة العربية، ومن يجلس على الكرسي. بس مين يهتم بالخراب والدمار اللي لحق بسوريا؟ حسبنا الله ونعم الوكيل."

الجد: "ماذا تتوقعين من العرب سوى الشجب والإدانة؟"

ليساء: "وما الهدف من سماع هذه الأخبار؟"

الجد: (مستغرباً) "يعني سماع تصريحات داعش والجيش التركي حول الشأن السوري، وسماع صوت جامعة الدول العربية حرام؟"

ليساء: (بتذمر) "سئمنا من تصريحاتهم حول القضية الفلسطينية. كيف نتوقع منهم أن يحلوا الحرب في سوريا؟"

الجد: "على العموم، لا أدافع عن الموقف العربي، ولكن التدخل في الشأن السوري يذكرني بلقاء فريقين عربيين في مباراة نهائية لكأس آسيا. المعلق يصرخ طوال المباراة بأن الفائز عربي والخاسر عربي. فتهانينا لنا نحن العرب بهذا 'الإنجاز'. وهكذا الحرب السورية، القاتل عربي والمقتول عربي، السار عربي والمأسور عربي، الجارح عربي والمجروح عربي. أصبحت بنادقنا مصوبة نحو صدورنا، لكن الحمد لله، لقد ضمنا النصر منذ بداية الحرب وحتى نهايتها، طالما الفائز عربي."

ليساء: "خلينا من الحكي، بعد أن أصبحنا قضية العرب الثانية أو الثالثة أو الرابعة بعد القضية الفلسطينية والعراقية والليبية. هل سنظل لاجئين إلى ما لا نهاية؟"

الجد: (بجديّة) "أكيد لكل شيء نهاية. من الممكن أن نموت هنا وتنتهي قصتنا."

****

كانت عهد تتقلب في سريرها قبل النوم، تحاول جاهدة أن تغفو، لكنها لم تستطع. ذكريات محاولات عائلتها للهجرة من سوريا تسيطر على أفكارها. ترى نفسها مجددًا تمشي مع عائلتها في ظلام دامس. كانت العائلة تسير طوال الليل، والخوف يحكم قبضته على الجميع. لم يسمح لهم أحد بإشعال سيجارة حتى، فالجندرما التركية تترصدهم، مناظيرها تراقب كل حركة.

كان الأطفال يبكون، وأصوات الهمس بين أفراد العائلة تتداخل مع أنفاسهم القلقة. وفجأة، صرخ المهرب يأمرهم بالسكوت. كمّموا أفواه الأطفال، والهمسات تحولت إلى خوف صامت. "حذار، أمرنا سيكشف!" همس المهرب بصوت منخفض، بينما الشتائم تتصاعد من أفواه بعضهم.

كان الليل مظلماً جداً، ولا يرى أحد أمامه إلا بصعوبة. المهرب يصرخ فيهم أن يمشوا ببطء وحذر بين الجبال والأشجار. كانوا يصعدون تلّة وينزلون أخرى، خطوة بعد خطوة، حتى وصلوا إلى أقرب نقطة من الحدود. فجأة، سمعوا صرخة مدوية، ثم تبعتها طلقات نارية.

في لحظة واحدة، تحول الصمت إلى فوضى. بدأ الجميع بالركض، الخوف يأكل قلوبهم. اثنان من أولاد الجيران أطلقت عليهم النيران، وأم خالد، التي كانت تمسك بأيدي أطفالها، حاولت حمايتهم، لكن الرصاصات الطائشة لم ترحم، اختارت طفليها ليكونا كبش فداء في قافلة المهاجرين.

استيقظت عهد من نومها بعد نصف ساعة، جسدها يرتعش ودموعها تملأ عينيها. صرخت منادية على أمها، التي فزعت من نومها وركضت نحوها.

ليساء: "خير حبيبتي، مالك؟"

عهد: (تبكي) "شفت في المنام مقتل أولاد جيراننا."

ليساء: (تحضنها وتربت على ظهرها) "إن شاء الله خير، يا حبيبتي. رؤية طفل ميت في المنام تعني بداية حياة جديدة، وتغيرات إيجابية في حياتك، وده اللي هيحصل إن شاء الله."

عهد: (تنظر إلى أمها ببلهة) "ما أخاف."

ليساء: "اطمئني يا حبيبتي، وما تخافيش. استعيذي بالله من الشيطان الرجيم."

****

جلس أسامة الديب على الأرض، محاطًا بأكوام من الكتب والقوانين والشروحات، منهمكًا في تجهيز ديباجة ورقة البحث التي سيعرضها في المؤتمر الدولي. كان يدون المصطلحات الرئيسية بعناية، مثل حقوق الإنسان، حقوق اللاجئين، والفارق بين اللاجئ والمهاجر. لكنه لم يصل بعد إلى جوهر موضوع بحثه، الذي كان يتناول المشاكل التي تواجه اللاجئين السوريين.

في لحظة انهماكه التام، قطعت أم سليم حبل أفكاره بقولها وهي تقترب منه: "هل قررت ترجع تشتغل بالمحاماة؟ كأنك بتجهز لمرافعة!"

نظر إليها أسامة بابتسامة متفاخرة وهو يجيب: "بلى، أقوم بتحضير ورقة بحثية عن المشاكل التي تواجه اللاجئين السوريين. ليست مرافعة، لكنها تشبه المرافعة، ولكن الفارق أن الحضور أساتذة جامعة وباحثين."

تمتمت أم سليم وهي تميل برأسها قليلاً: "وما اسم هذا المؤتمر؟"

أغلق أسامة أحد المراجع ونظر إليها قائلاً: "مؤتمر دولي بعنوان 'سوريا بين الواقع والمأمول'."

ضحكت أم سليم بخفة وقالت: "اسم رومانسي، وفيه سجع. تعرف؟ المفروض يسموه 'أسامة الديب بين الواقع والمأمول'!"

لم يُعجب أسامة بالتهكم، فرد بامتعاض: "معلش، آسف، بس أنا هدفي أوصل معاناة اللاجئين السوريين للعالم كله."

ثم استرسل بلهجة واثقة:

"إذا ما ضاق صدرك من بلدٍ ترحّل طالباً بلداً سواها عجبتُ لمن يعيش بأرض ذلٍ وأرض الواسعة فضاها فإنك واجدٌ أرضاً بأرضٍ ونفسك لا تجد نفساً سواها مشيناها خطىً كتبت علينا ومن كتبت عليه خطىً مشاها"

تنهدت أم سليم بعد أن استمعت له، ثم قالت بنبرة واقعية: "هل مازلت تظن أن العالم جميل ومثالي، وأنهم فقط يحتاجون إلى مزيد من المعلومات التوعوية عن ما نعانيه؟"

نظر إليها أسامة بضيق وقرر أن يلقي عليها محاضرة صغيرة: "هل سمعتي عن علم الإنسان الاجتماعي 'Anthropology'؟ أكيد لا، هو فرع من العلم يبحث في معاني الحياة الاجتماعية وأوجه الغموض والتناقض بها، وأنماط النشاط الاجتماعي والعنف والنزاع؛ والمنطق الكامن وراء السلوك الاجتماعي. كثير من الباحثين حول العالم ينشرون أوراق بحثية في هذا المجال، وعدد قليل منهم يلقي الضوء على مشكلة اللاجئين السوريين. وذنبي أني أريد إيصال مشكلتنا للعالم."

أخرجت أم سليم زفيرًا طويلًا وقالت: "أنت تدافع عن هدف نبيل، بس بالله عليك، كم واحد من هؤلاء الباحثين ساكن في مخيمات؟"

نظر إليها مستغربًا وقال: "وهل تظني أحد يكتب عنوان بيته في البحث؟"

قالت بأسف: "عذرًا، أنا مش مطلعة على أعمال الباحثين، بس تتوقع يعني كم واحد منهم جرب العيش في مخيم لاجئين؟ كم واحد منهم يعيش على الكفاف مثلنا؟"

صمت أسامة برهة ثم قال: "لا أعرف، لكن أنا حقوقي، وواجبي أن أتحرك دفاعًا عن حقوق الإنسان. ثم أنا في انتظار بداية العام الدراسي بالمخيم للعمل كمدرس تابع لليونسيف."

تنهدت أم سليم مجددًا وقالت وهي متأففة: "يعني لم تبدأ بعد. بالله عليك، لا تهرب من سوءِ الواقع إلى مثالية الخيال. نحن نعيش تحت خط الفقر، تمر علينا أيام لا نجد ما يسد رمقنا. الكثير من أهل المخيم يبحثون عن عمل في غازي عنتاب وغيرها من المدن التركية. ليه ما تحذو حذوهم وتبحث عن عمل يدر علينا دخل بدل من هذه البحوث اللي لا تسمن ولا تغني من جوع؟"

نظر إليها أسامة باستغراب وأفحمها بسؤال: "وهل لديهم تصريح عمل رسمي؟!"

تنهدت أم سليم مرة أخيرة وقالت: "أنا مخطئة لما قررت أحدثك عن العمل."

******

بعد شراء ملابس العيد، أخذت أمل طفلها في جولة بشوارع الشهباء صبيحة يوم العيد. كانت الشوارع تعج بالحياة، والأطفال يصرخون ويضحكون وهم يلعبون حولها. تسمع بينهم هتافات مثل "نفذت الذخيرة!" و"احمي ظهري!" و"المنطقة آمنة!"، فيتسرب مزيج من الحزن والدهشة إلى قلبها، فتلك الكلمات لم تكن مجرد عبارات ألعاب، بل ذكريات من واقع مرير.

يشد طفلها بقبضته الصغيرة على يدها، محاولًا لفت انتباهها إلى الطفل الذي يبيع أسلحة بلاستيكية مستوردة على أحد الأرصفة. تقترب أمل من الطفل البائع، الذي يبتسم لقدومهم ويبدأ بعرض بضاعته بحماس: "هذه رشاشات بلاستيكية، يتم حشو مخزنها بكرات صغيرة وصلبة." يقف الطفل على قدم واحدة، متكئًا على عكاز، ثم يسحب نابض الرشاش ويطلق الكرات نحو السماء، قبل أن يستدرك بتحذير: "لكن احذروا، يمكن لهذه الأسلحة البلاستيكية أن تطلق الكرات لمسافة تصل إلى ستة أمتار، وقد تصيب العين بدقة."

ترتجف يد أمل وهي تحمل اللعبة البلاستيكية، مشاعر الخوف والألم تتداخل مع رغبة طفلها في اقتنائها. تحاول استيعاب الفكرة، لكنها تعيد اللعبة إلى الطفل البائع، غير قادرة على المضي قدمًا في شراء شيء قد يحمل خطرًا، حتى وإن كان صغيرًا. يمسك طفلها بيدها مرة أخرى، بعينيه البريئتين يتوسل إليها، ولكن هذه المرة، ترفض الاستجابة لرغبته.

تستمر في المشي، متمنية أن تعود البهجة لأيام العيد، ولكن بعيدًا عن ذكريات الحرب وأدواتها، ولو كانت مجرد ألعاب.

تستمر أمل في السير مع طفلها في شوارع الشهباء، تحاول تحويل انتباهه إلى أشياء أخرى، تشير إلى الألوان الزاهية في الأضواء المعلقة على المحلات، وإلى الأطفال الذين يرتدون ملابس العيد الجديدة، يركضون ويضحكون. لكن قلبها مثقل بالقلق، فهي تدرك أن الحرب لم تترك أثرها فقط على الأرض والبنيان، بل على جيل كامل من الأطفال، الذين باتت أسلحتهم ليست مجرد ألعاب بل رموزًا لواقعهم القاسي.

بينما يمشون، ترى بائعًا آخر يعرض بالونات ملونة وألعابًا ناعمة. تقرر أمل التوجه إليه. تقترب وتبتسم لطفلها قائلة: "شوف البالونات الجميلة دي! تختار لون إيه؟"

تختار البالونات مع طفلها، وتشتري له واحدة حمراء على شكل قلب، تحاول من خلالها أن تغرس فيه فكرة أن الفرح يمكن أن يكون بسيطًا، بعيدًا عن العنف والصخب. يمسك الطفل بالبالون بفرحة، ويبدأ في الركض به، يرفع يده الصغيرة ليرى كيف يتمايل مع الرياح.

يعود الأمل إلى قلب أمل وهي ترى ابتسامة طفلها تعود تدريجيًا، تدرك أن هذه اللحظات الصغيرة هي التي ستحميه من تأثيرات الحرب، وأنه يمكن لها أن تخلق له طفولة مليئة بالحب والفرح حتى في أصعب الظروف.

في نهاية اليوم، يعودون إلى البيت، حيث يملأ الطفل الغرفة بضحكاته وهو يلعب ببالونه الجديد. تجلس أمل وتراقبه، تشعر بأن هناك بعض الأمور التي لا تزال قادرة على إصلاحها، على الرغم من كل شيء.

في تلك اللحظة، تدرك أمل أن المعركة الحقيقية ليست فقط في البقاء على قيد الحياة، بل في الحفاظ على الإنسانية، والأمل، والقدرة على الفرح، رغم كل الصعاب.

****

جلست العائلة معًا لأول مرة منذ فترة لتناول وجبة الغذاء التي تسلموها في الظهيرة من مندوبي برنامج الغذاء العالمي التابع للأمم المتحدة. كانت لحظة نادرة من الصفاء العائلي، حيث جلس الثلاثة حول مائدة بسيطة يتناولون وجبتهم. لكن ليساء، بأسلوبها المعروف، لم تستطع أن تترك هذا الصفاء يستمر.

"هل سمعتم عن ما آلت إليه حلب؟" سألت بصوت مليء بالقلق. لم يلتفت الجد، المنهمك في تناول طعامه، إلى حديثها، بينما تابعت هي قائلة: "أم سليم أخبرتني اليوم أن حلب لم تعد كما كانت، تغيّرت ملامحها ومعالمها."

أنهى الجد احتساء الشوربة ثم قال بلهجة ساخرة: "هل صارت مدينة أوروبية؟"

تجهمت ليساء وردّت بتوتر: "للأسف، أصبحت الدعارة مرخصة في حي الموكامبو والميرديان، وانتشرت تجارة المخدرات في المدينة، والشبيحة باتوا يتحكمون في مرافق المدينة."

تذمر الجد وقال: "يعني الشبيحة هم من يسيطرون على المدينة، وليس داعش؟"

هزت ليساء رأسها وقالت: "هذا ما سمعته."

ردّ الجد باستغراب: "لكن الأخبار تتحدث عن أن داعش هي التي تسيطر على المدينة، وقوات التحالف تقصف المدينة للقضاء على داعش."

تنهدت ليساء وقالت: "هذا ما قالته أم سليم."

أخذ الجد نفسًا عميقًا ثم قال: "يعني نصدق الأخبار أم نصدق أم سليم؟ هل المدينة صارت تحت إمارة إسلامية أم تحولت إلى لاس فيغاس؟"

تدخلت الأم قائلة: "يعني نجلس هنا نتابع أخبار تركيا ولا نتابع أخبار سوريا؟"

قال الجد بنبرة حازمة: "أنا أقصد أن الأخبار متضاربة، وكل يوم نسمع شيئًا مختلفًا. وليس من الضروري أن تسمع ابنتك مثل هذه الأخبار، ثم تشتكين من حالتها النفسية."

ردت ليساء بغضب: "يعني أحدثها عن الجنة التي تركناها في حلب؟"

أجاب الجد بهدوء: "يكفي ما تعيشه وتعاينه في المخيم، ليست بحاجة إلى أخبار أسوأ، تزيد من مرارة الوضع."

****

التفت أسرة أسامة الديب حول طاولتها الصغيرة في خيمة المخيم، حيث كانت الوجبة اليومية قد وصلت. أخذ أسامة قضمة من طعامه، ففوجئ ببرود الطعام، مما أثار اشمئزازه.

"لماذا يأتوننا بنفس الوجبات كل يوم؟" قال بصوت مليء بالاستياء. "حتى لم يفكروا في تسخينها. كأنهم يقدمون الطعام إلى حيوانات."

تعجبت أم سليم من تعبيره، وقالت بمرارة: "يا ربي، عطيني وجرّبني، قللوا، أنا ربك وأخبر فيك."

رد أسامة بتبجّح: "من المفترض أن تلتزم المفوضية السامية لشؤون اللاجئين بتوفير 2100 سعر حراري للفرد يوميًا. ليس نفس الطعام وخلص."

ضحكت أم سليم من قدرته على الجدال وقالت: "الخبز والماء أكل العلماء."

رد عليها أسامة بتعجب: "معلش، من المفترض أن يكون العلماء زاهدين في الدنيا، لكن ليس كل العلماء يعيشون على الكفاف. عادة ما ينتمي المثقفون والمديرون والمدرسون والأطباء والعلماء إلى الطبقة الوسطى."

قالت أم سليم: "نحن تخطينا خط الفقر العادي، ونعيش تحت خط الفقر المدقع."

أجابه أسامة بحزن: "ما باليد حيلة."

تنهدت أم سليم بضيق، وقالت: "العمل ليس عيبًا مهما قل وصغر، طالما يكفينا مذلة السؤال."

فضل أسامة أن يكمل طعامه صامتًا، دون الخوض في نقاشات أخرى، غارقًا في أفكاره حول الوضع الراهن وأحلامه لمستقبل أفضل.

****

في المساء، اجتمعت الأسرة حول الراديو كعادتهم، يستمعون إلى نشرة الأخبار التي بدأت كعادتها بخبر هام. أدار الجد مؤشر الصوت إلى العلى ليتسنى لهم سماع التفاصيل بوضوح. استهلت النشرة بخبر عن الغارات الجوية التي شنتها القوات الإسرائيلية على مواقع عسكرية سورية فجر الأربعاء، وذلك بعد انفجار في منطقة الجولان أدى إلى إصابة أربعة من الجنود الإسرائيليين بجروح.

قالت النشرة إن الجيش السوري صرح بأن الغارات أسفرت عن مقتل جندي وإصابة سبعة آخرين. وأضاف المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي أن الغارات استهدفت منشأة تدريب للجيش السوري، ومقرات عسكرية، وبطاريات مدفعية، موضحًا أن الهجمات تركزت في جنوب سوريا ومنطقة القنيطرة تحديدًا، وهدفت إلى إرسال رسالة واضحة إلى النظام السوري مفادها أن إسرائيل لن تسمح لأحد بانتهاك سيادتها.

كما أعلن الجيش السوري النظامي أن الغارات الإسرائيلية على مواقع عسكرية في جنوب سوريا أسفرت عن مقتل جندي وجرح سبعة آخرين، محذرًا من أن التصعيد الإسرائيلي يعرض أمن المنطقة للخطر ويجعلها مفتوحة على كل الاحتمالات، بسبب ما وصفه بـ "المحاولات الإسرائيلية اليائسة للتصعيد وتوتير الموقف".

قالت ليساء بمرارة: "ما كان ناقصنا غير إسرائيل تقصف مواقع داخل سوريا. يعني ممكن تنتهي مشكلتنا بشن حرب على إسرائيل."

تعجب الجد من قولها وقال: "إذا كنا غير قادرين على توحيد صفوفنا، فكيف سنحارب إسرائيل؟"

بعد سماع نشرة الأخبار، سألت أم سليم أسامة عن رأيه في الاعتداءات الإسرائيلية. تفكر أسامة قليلاً ثم قال: "وفقًا للقرار 3314 الصادر عن الأمم المتحدة، قصف القوات المسلحة لدولة أخرى أو استخدام أي سلاح ضد أراضي بلد آخر هو عمل عدواني. لذلك، وعلى الرغم من أن النظام الإسرائيلي لم يحاول شن هجوم كبير على سوريا، إلا أن استخدام صاروخ أو مقاتلة أو طائرة من دون طيار ضد سوريا هو عمل عدواني."

تمتمت أم سليم في سرها: "آخر الطحن قرقعة"، ثم سألته: "برأيك، هل سترد سوريا الصاع صاعين؟"

رد أسامة بتلقائية: "يجب علينا أن نرفع دعوى ضد الكيان الصهيوني في مجلس الأمن، ومن ثم ندرس إمكانية الرد."

كانت الأجواء مشحونة بالتوتر، وكل واحد منهم يحاول فهم الوضع وتفسيره بطريقته الخاصة. وبينما كانت الأخبار تتوالى وتتصاعد، بقيت العائلة تعيش في حالة من القلق والترقب، تترقب ما قد يحمله المستقبل من تطورات غير محسوبة.

****

في غرفة مظلمة بطول أربعة أمتار وعرض ثلاثة أمتار، جلس باهر غضبان، مجبرًا على التكدس مع سبعين شخصًا آخرين. كانت الرائحة الكريهة تعمّ المكان من كل جانب، والغرفة التي لا تحتوي على أي نافذة جعلت الهواء فيها خانقًا. في هذا الجو المقيت، أخذ باهر نفسًا عميقًا، وبدأ يقلب شريط حياته الماضية، مستعرضًا كل ما مر به من أحداث.

أصبح في وضع يائس، حيث لم يعد لديه رفاهية الاستلقاء على الأرض، وهو ما يعتبر ضربًا من الخيال في ظل الاكتظاظ. لم يكن في مقدوره التفكير في شيء سوى كيفية الهروب من هذا الكابوس.

سأله المحقق بلهجة حازمة: "هل تعترف بمحاولة قلب نظام الحكم؟"

تسارع نبض قلب باهر وهو يتذكر رحلته من كونه ثائرًا إلى كونه معتقلًا. لم يكن أكثر من ثائر أراد أن يكتب مستقبلًا أفضل لوطنه. لم يكن لديه أي نية لكتابة عبارات على الحائط، بل كان يعمل في منظمة مدنية تهدف إلى نشر الديمقراطية وحقوق الإنسان في البلدان المتخلفة.

كان قد حاول العثور على وظيفة في القطاع الحكومي، لكنه لم يجد، وكانت قدرته المالية لا تسمح له بفتح مكتب محاماة خاص. لذا، اختار العمل بأجر زهيد في مكتب محاماة خاص، قبل أن يجد فرصة أفضل في منظمة العمل المدني، التي كانت تهدف إلى تقديم المعونات للفئات المحتاجة والرعاية للأشخاص ذوي الاحتياجات الخاصة.

لم يخطر بباله أبدًا أن تكون هذه المنظمة بوابته إلى المعتقل. كان يتذكر كيف أن أهداف المنظمة لم تتعارض مع مصلحة الدولة، كيف أنها كانت تهدف إلى تحسين حياة الناس. لكن الآن، وهو في زنزانته، كان يتساءل عن السبب الذي أدى إلى اعتقاله.

كان العميد "باسيم أبو شنب" يحدق فيه بنظرة قاسية، متأملًا ردود فعله. سأل باهر بصوت عميق: "هل ستعترف بجريمتك؟"

شعر باهر بضغط هائل، وبدأ يشد فروة رأسه باحثًا عن إجابة نموذجية يمكن أن تخرجه من هذا المعتقل. كان يحاول ترتيب أفكاره، محاولًا إنقاذ نفسه من هذا الوضع القاسي.

لكن، في ظل الظروف الراهنة، بدا كل شيء ضبابيًا، وكان كل ما يريده هو أن يجد طريقة للخروج من هذا الكابوس، وأن يتمكن من العودة إلى حياته الطبيعية مرة أخرى.

بينما كان يستعرض كل تفاصيل حياته، تبين له أنه لا توجد إجابة سهلة في مثل هذه المواقف، وأنه ربما عليه أن يواجه مصيره بمرونة وشجاعة.

****

تقلبت عهد في فراشها طوال الليل، يعكر نومها كابوس مرعب. في الحلم، رأت مركبًا يتمايل بفعل ثقل الحمولة، وكان الركاب على متنها يتعرضون لموجات عاتية. كانت المياه تتسرب إلى داخل المركب، مما جعل المحرك ينفث الدخان الأسود نتيجة الوزن الزائد. حاول القبطان الرجوع إلى الخلف لتفادي الأمواج، لكن المركب كان قد انقلب بالفعل.

في وسط الفوضى، كان "عبد الله" يقبض بكلتا يديه على يد "عهد"، مستنجدًا بها لإنقاذه من الغرق. حاول أبوه أن ينقذه، واصطف بجسده ليكون جسرًا يقف عليه عبد الله ليستنشق الهواء، لكن جهودهم كانت دون جدوى. كانت أقدام الغارقين تدفعه إلى الأسفل، وكانت الرؤية مريعة ومؤلمة.

استفاقت عهد من نومها وهي تصرخ، تتنفس بسرعة وعينيها مليئة بالذعر. سمعت ليساء صرخاتها، فقامت مسرعة نحوها، وعندما وصلت إليها، قالت بقلق: "أفزعني صراخك، ماذا بكِ؟"

قالت عهد، وهي ترتعد: "لقد رأيت أطفالًا غرقى وهم يحاولون الهجرة إلى أوروبا. كانوا في قارب ينقلب والماء يغمرهم. شعرت بالخوف الشديد."

ضمتها ليساء إليها بحنان، محاولة تهدئتها: "لا تخافي، حبيبتي، هذا مجرد كابوس. لا تعطيه أكثر من حجمه. في الحقيقة، نحن في أمان، وقد خففنا الله علينا."

سألت عهد بقلق: "هل تعتقدين أن هذه الرؤيا نذير شؤم؟"

أجابت ليساء، وهي تحاول تخفي خوفها: "اطمئني، حبيبتي. هذه الرؤيا ليست سوى تعبير عن القلق والضغوط التي نمر بها. في النهاية، نحن الحمد لله نعيش في مكان آمن، بعيدًا عن خطر الغرق والموت. رؤيتك لم تكن سوى انعكاس لمخاوفك."

على الرغم من كلمات ليساء المطمئنة، لم تستطع عهد التخلص من الإحساس بالقلق الذي تركه الكابوس في قلبها. كان حلمها بمثابة تذكير مؤلم بمخاوفها المتعلقة بالمستقبل، وصعوبات الحياة التي تواجهها وعائلتها في مخيمات اللجوء.

مع بزوغ فجر يوم جديد، حاولت عهد استعادة هدوئها والتمسك بالأمل، بينما كانت ليساء تحاول إيجاد طرق لمساعدة عائلتها على التكيف مع الظروف الحالية. لكن أثر الكابوس بقي يلوح في الأفق، كتحذير من المخاوف التي تظل ماثلة في أذهانهم.

*****

كانت "أمل" تسير في شوارع الشهباء، حيث لا يكاد يتسع المكان لكل هذا الكم من الأسلحة والمعدات العسكرية. المدينة تبدو وكأنها على أعتاب حرب جديدة، ولم يكن هناك شك في أن الاستعدادات جارية على قدم وساق. كانت الطرقات مغطاة بآثار الفوضى التي خلفها تحرك قوات الجبهات، حيث كانت السيارات المحملة بالأسلحة والذخائر تسير بكثافة، بينما كانت البسطات التي كانت تبيع الخضروات والفاكهة تُعرض الآن الأسلحة كسلعة أساسية.

نظرت "أمل" إلى جهة اليمين، ووجدت الطفل الذي كان يبيع لعب الأطفال في الأعياد، وهو الآن يبيع الأسلحة الخفيفة. هذا التغيير الصادم يعكس تحولًا عميقًا في طبيعة الحياة في المدينة. بدلاً من ألعاب الأطفال، أصبحت الأسلحة جزءًا من الروتين اليومي، وأصبح الأطفال الصغار، الذين لم يفهموا بعد مفهوم الصواب والخطأ، يشاركون في الصراع كجنود.

في الشوارع، رأيت "أمل" الأطفال وهم يتجولون وهم يحملون الأسلحة الحقيقية، يتدربون على استخدامها، وقد أصبحوا جزءًا من المشهد العسكري المهيمن على المدينة. في السابق، كانت الألعاب التي يلعبون بها عبارة عن مسدسات غير حقيقية، لكن الآن، أصبحت الأسلحة الحقيقية هي لعبتهم المفضلة، ويتدربون على استخدام أدوات القتل بدلاً من الألعاب البريئة.

هذا التحول لم يؤثر فقط على الأطفال، بل على المجتمع ككل. الفصائل العسكرية ترحب بكل من يمكنه الانضمام إلى العمليات العسكرية ونقاط التفتيش، دون النظر إلى العمر أو الخبرة. أصبحت المدينة معسكرًا كبيرًا للحرب، حيث يشارك الجميع، صغارًا وكبارًا، في المعركة، وتُعتبر المشاركة في الجبهات شرفًا لا يقل عن كونه ضرورة.

لـ"أمل"، هذا المشهد يمثل صدمة عميقة. التغيرات التي طرأت على المدينة تجعلها تتساءل عن مستقبل الأطفال الذين نشأوا في ظل هذه الظروف. كيف سيؤثر هذا التحول على اجيالهم؟ وكيف سيؤثر على القيم الإنسانية التي تلاشت في خضم هذا الصراع العنيف؟ تظل الأسئلة تتردد في ذهنها، بينما تتابع سيرها في الشوارع المزدحمة، تشعر بثقل المشهد وصعوبته.

******

قرر الجد في ذلك اليوم أن يبيع تاريخه من أجل حاضره، وأن يتخلى عن لوحات الفسيفساء الملونة التي تعود إلى العصر الأموي، والتي ورثها عن أجداده العظام من بني أمية. لقد جاء الوقت الذي يفضل فيه تأمين مستقبل حفيدته على الحفاظ على

إرثها العريق. فاستقلّ الحافلة التي استغرقت إحدى عشرة ساعة للوصول إلى إسطنبول، متحملاً إرهاق السفر من أجل تحقيق هدفه.

بعد هذه الرحلة الطويلة، دخل الجد وعهد إلى سوق "أراستا"، الذي يقع خلف مسجد السلطان أحمد في إسطنبول. كانت عهد منبهرة بمظهر الدكاكين ذات التراث التركي العثماني، وكأنها قد عادت أربعمائة عام إلى الوراء. أما الجد، فلم يكن مندهشاً بقدر ما كان يحن إلى أسواق حلب القديمة، التي قضى فيها سنوات عمره الخوالي. المكان الذي يعيش في ذاكرته كان يُذكر عهد بسنوات الحرب والدمار، ولذلك، كان من الأفضل لكل منهما أن يتجنب التحدث عن تلك الذكريات المؤلمة.

مَشَيا طويلاً وهما يحملان لوحات الفسيفساء الخمس، يتنقلان بين الأزقة القديمة بحثاً عن بائع للتحف. بعد يوم السفر الطويل، وصلا إلى سوق كوزا هان للحرير، حيث حاول الجد بيع لوحاته مقابل بعض القماش، ولكن دون جدوى. استمروا في سيرهم حتى وصلوا إلى منطقة تحتوي على محلات للهدايا التذكارية.

دخلوا إلى متجر يبيع سجاداً تقليدياً، حيث وقفا على باب المحل معجبين بألواح السيراميك الصغيرة ذات الألوان والنقوش المختلفة. تناول الجد قطعة من السيراميك المنقوش عليها صورة السلطان سليمان القانوني، فتذكر أن السلطان قد عُرف بالعدالة، وهو ما أضفى على القطعة قيمة تاريخية.

تقطع تأملات الجد صوت كهل خمسيني، قال له: "تعجبك هذه القطعة؟" التفت الجد إليه مشدوهاً لسماعه يتحدث بالعربية في هذا السوق. قال: "بلى، ولكن كم ثمنها؟" أجابه الرجل: "ثلث مئة ليرة تركية."

أبتسم الجد وأعاد القطعة إلى مكانها قائلاً: "أنا لا أملك نصف هذا المبلغ." أجابه "إيمير إيبيك": "لا عليك." ثم سحب الجد وعهد من يدهم وكأنما نسي ما جاء من أجله. لاحظ إيمير أن اللوحات قد تُركت أمام المتجر، فحملها وأسرع للحاق بالجد وعهد، قائلاً: "معذرة، لقد نسيت هذه اللوحات."

التفت الجد إليه وقال: "معذرة، هذا ما جئت من أجله." لم يفهم إيمير المغزى من حديثه، فقال: "ماذا تقصد؟" قال الجد: "جئت لبيع هذه اللوحات، تعود إلى العصر الموي." أخرج اللوحات من الكيس وناولها لإيمير. ارتدى إيمير نظارته الطبية ليدقق النظر، ثم انبهر بشكل اللوحات وقال: "هذه لوحات أثرية، مكانها الطبيعي في متحف للآثار وليس في بازار."

تنهد الجد وقال: "أعرف ذلك، ولكن لولا الحاجة ما فكرت في بيعها." ثم حكى له عن ابنته وانقطاع أخبار زوجها بالمعتقل، وحاجته إلى هذا المال لفك كربتها. بدا على وجه إيمير علامات الأسى لما سمع معاناتهم.

طوى إيمير اللوحات وأعادها إلى الكيس قائلاً: "بصراحة، هذه اللوحات أثرية وليس لها زبائن كثر. كما أنني أخشى أن أتهم ببيع آثار. أنا أبيع بعض الهدايا التذكارية البسيطة ولم أتاجر في قطع أثرية من قبل. بعض الناس يبيعون القطع الأثرية بمزاد علني إذا ثبت ملكيتها لها، لكن عليك مخاطبة وزارة الآثار التركية للتأكد من الطرق الشرعية لبيع هذه اللوحات."

تمتم الجد قائلاً: "اجا يكحلها عماها." ثم قال: "المشكلة أني لا أملك بطاقة هوية، وجواز سفري السوري منتهي الصلاحية، لذلك لا أغادر المخيم إلا في الضرورة القصوى. كما أخبرتك، لولا الحاجة ما قطعت هذا السفر الطويل لبيع اللوحات."

وضع إيمير نظارته الطبية في جرابها وقال: "كم المبلغ الذي تريده؟" وضع الجد اللوحات تحت إبطه وقال: "حوالي خمسة آلاف دولار." قال إيمير: "هذا مبلغ كبير، ظننت أنك بحاجة إلى مبلغ بسيط." قال الجد بأسى: "ألم أقل لك، لولا الحاجة إلى المال ما فكرت في بيع اللوحات."

قال إيمير: "سمعت أن اللاجئين يحصلون على إعانات مالية." رد الجد: "حتى الآن نستلم إعانات غذائية. سمعت أنهم سيسلمون كوبونات لشراء سلع غذائية من الأسواق القريبة، ولكن ليس لدينا القدرة على الحصول على هذا المبلغ الضخم بالمخيم."

دخل إيمير إلى متجره للتحدث إلى أحد الزبائن ثم عاد إلى الجد وقال: "فكرت في حل قد يساعدك في تحصيل مبلغ المال الذي تريده." قال الجد: "سأكون في غاية الامتنان إذا قدمت لنا المساعدة." قال إيمير: "في الحقيقة، سأقوم بدور الوسيط بينك وبين صاحب المال. لماذا لا تصنعون ملابس من الصوف وقبعات شتوية عليها العلم السوري؟ عادة ما يأتي السياح إلى هنا لشراء الهدايا التذكارية البسيطة التي لا تشغل حيزاً كبيراً في حقائب السفر."

قال الجد متعجباً: "لكننا لا نحسن الخياطة." رد إيمير: "الأمر يسهل تعلمه. أعرف أحد الأتراك الطيبين الذي يمكن أن يقرضكم مبلغاً من المال كدين حسن." قال الجد: "أول مرة أعرف أن هناك ديناً حسناً." تنهد إيمير وقال: "يعني بدون فوائد." قال الجد: "يعني لا يمكنك أخذ هذه اللوحات وتعطينا خمسة آلاف دولار؟"

عندما رأى إيمير علامات التذمر على وجه الجد قال: "المشكلة إذا ما دفعنا المبلغ سيدخل السجن." تنهد إيمير ثانية ثم قال: "فكر بالعرض. صاحب القرض سيسلمك المبلغ على دفعات لضمان التزامكم بالسداد. صدقني، هذه الورشة الصغيرة ستساعدك على توفير المال اللازم للنفقات والادخار."

شعر الجد أنه على وشك أن يغمى عليه من إرهاق السفر وعدم إتمامه العملية. ثم قال: "شكراً على اهتمامك." اصطحب الجد عهد مرة أخرى وهو يفكر في الطريق الطويل الذي كتب عليهم أن يمشوه للتخلص من معاناتهم.

بعد أن رحل الجد وعهد من متجر إيمير، كان لديهما الكثير من التفكير والتخطيط. ظل الجد يفكر في عرض إيمير بإقامة ورشة خياطة صغيرة لصناعة الملابس والقبعات التي يمكن أن تباع للسياح.

****

في كل صباح، يبدأ طابور جديد أمام نقطة توزيع الخبز في المخيم. ساعات طوال تقف ليساء بانتظار دورها للحصول على كيس خبز للفطور، لتجد نفسها محاطة بأصوات صرخات الشباب المحبطين. تتمنى أن يكون الموت تحت قصف الطائرات أو رصاص الجيش أسهل من هذه المهانة اليومية.

تدير ليساء وجهها نحو أم سليم، التي تقف خلفها، قائلة بصوت خفيض: "على ما يبدو أننا سننتظر طويلاً اليوم." فيرد عليها صوت الشاب المتصاعد من داخل الطابور، والذي لا يتوقف عن الصياح، "الموت تحت قصف الطائرات أو رصاص الجيش كان أرحم من هذه المهانة!"

ترد أم سليم بدورها: "من يهن يسهل الهوان عليه، ما للجرح بميت إيلام. عند البطون ضاعت العقول." تضحك ليساء بمرارة، ثم تقول: "عقولنا شطّت حتى بنتي الصغيرة فقدت عقلها."

تلتفت أم سليم بسؤال قلِق: "لا تقولي ذلك، حبيبتي الصغيرة، كيف حالها؟"

تشعر ليساء بالتردد في بداية الأمر، لكنها تقرر أن تكون صادقة. تقول بصوت يملؤه القلق: "أنا قلقة بشأن صحتها النفسية. لقد شهدت الحرب وهي طفلة صغيرة، ومن ثم العيش في المخيم كما ترين، يفتح النفس."

تسأل أم سليم بقلق: "كيف حالها؟"

تتنهد ليساء بعمق، ثم ترد: "لا شيء، الحمد لله بخير، لكن ينتابها كوابيس بشكل يومي. عندما أتذكر كيف كانت قبل الحرب، كانت تحب اللعب وكانت لطيفة. كانت كغيرها من الأطفال الطبيعيين تقضي وقتها في اللعب، أما الآن، فقد أصبحت كئيبة. تضع يديها على وجهها كل صباح، وتقضي أوقاتًا طويلة في التفكير، كأنها تفكر في أيام الحرب."

تسأل أم سليم: "هل تحدثك بما تفكر فيه؟"

ترد ليساء: "نادراً ما تحدثني بما تفكر فيه إلا إذا رأت في منامها كوابيس مخيفة."

تضيف أم سليم، ماضية في الحديث عن معاناتها الخاصة: "كان ينتاب سليم كوابيس عندما جئنا إلى المخيم، ولكن حالته تحسنت بعد زيارة طبيبة المخيم."

تسأل ليساء بدهشة: "وهل هناك أطباء بالمخيم؟"

تجيب أم سليم: "لا يسكنون المخيم، ولكن تأتي قافلة طبية كل أسبوع تقريبًا لمتابعة الحالة الصحية لأهالي المخيم."

تقول ليساء: "لماذا لا تعطيني اسم الدواء بدلًا من الكشف؟"

ترد أم سليم: "من الأفضل أن تحدد الطبيبة الدواء للحصول على الدواء بالمجان. هم عادةً يتواجدون يوم الأحد في المخيم، إذا أردتِ استشارتهم."

تحزم ليساء عزمها، عازمةً على زيارة القافلة الطبية في أقرب فرصة، آملاً أن تجد العون لعهد وتخفف عنها كوابيسها المرعبة.

بينما يمر الوقت، لا تزال الطوابير في انتظارها، ولكن قلب ليساء مفعم بالأمل بأن تجد لعهد طريقاً للراحة والاستقرار.

****

في المساء، جلست الأسرة على كراسي خشبية مهشمة في ساحة صغيرة، يستقبلون الهواء العليل بعد شتاء طويل وعسير. لم يستطع الجد أن يتنفس هواءً نقيًا دون أن يشعر بالبرد يلسع جلده، فكان يتمنى أن يستمتع بلحظة من الصفاء والهدوء.

لكن هذا الصفاء قطعته ليساء عندما رفعت صوت المذياع. بثت النشرة الإخبارية خبراً مثيراً: "أبو بكر البغدادي"، زعيم تنظيم "الدولة الإسلامية"، أعلن نفسه "خليفة للمسلمين" في أول ظهور علني مصور له. دعا البغدادي المسلمين إلى طاعته، كما جاء في التسجيل المصور الذي صُور في الجامع الكبير بمدينة الموصل.

قال أبو بكر البغدادي في خطبته: "أطيعوني ما أطعت الله فيكم"، ثم أضاف: "إن الله أمرنا أن نقاتل أعداءه ونجاهد في سبيله لتحقيق ذلك وإقامة الدين. أيها الناس، إن دين الله تبارك وتعالى لا يُقام ولا تتحقق هذه الغاية التي من أجلها خلقنا الله إلا بتحكيم شرع الله والتحاكم إليه وإقامة الحدود، ولن يكون ذلك إلا ببأس وسلطان."

تابع البغدادي حديثه: "لقد ابتليت بهذا الأمر العظيم، لقد ابتليت بهذه الأمانة الثقيلة، فوليت عليكم ولست بخيركم ولا أفضل منكم، فإن رأيتموني على حق فاعينوني، وإن رأيتموني على باطل فأنصحوني وسددوني، وأطيعوني ما أطعت الله فيكم."

عندما انتهت النشرة، سألت ليساء بقلق: "هل أصبح لدينا خليفة للمسلمين؟" سكت الجد لوهلة ثم قال: "نعم، لدينا خليفة للمسلمين، وعلى حكام الدول الإسلامية مبايعته."

أجابت ليساء بمرارة: "أنا لا أمزح."

قال الجد بهدوء: "ماذا تنتظرين مني أن أقول؟ إذا ادعى أي أحد الخلافة، هل يجب على المسلمين مبايعته؟ الأمر كله لا يعدو أن يكون هراء فارغاً."

ثم سألت ليساء بحيرة: "يعني القتال الذي يحدث الآن ليس حقيقياً؟"

رد الجد بصراحة: "بلى، هو حقيقي، ولهذا تركناهم يتقاتلون."

ثم أضاف: "لما دُعي أحد التابعين لمقاتلة ابن زبير، رد قائلاً:

'ولست بقاتل رجل يصلي
على سلطان آخر من قريش
له سلطانه وعلي إثمي
معاذ الله من جهل وطيش

أأقتل مسلماً في غير جرم
فليس بنافعي ما عشت عيشه'

ثم سكت بُرهة، وقال: "هذا ما أعتقده في حكم إراقة الدم بين المسلمين."

بينما يتابعون الأخبار المزعجة، تبقى الأسرة في صمت عميق، كل منهم يفكر في معاني تلك الكلمات والقرارات التي تؤثر على مصيرهم ومستقبلهم.

****

في المساء، جلست عائلة الجد على كراسي خشبية مهشمة في فناء المخيم، محاولين الاستمتاع بأول نسائم الربيع بعد الشتاء الطويل. كان الهواء العليل يسري بين الحاضرين، لكن الجد كان ما يزال يتنفس بصعوبة بسبب البرد الذي عانى منه طويلاً. قطع صوت المذياع هذه اللحظة الهادئة، حيث بثت نشرة الأخبار خبر تنصيب "أبو بكر البغدادي" نفسه خليفة للمسلمين.

سمعت ليساء، وهي تتحدث إلى أم سليم التي وقفت بجانبها، تقول: "على ما يبدو أننا سننتظر طويلاً اليوم للحصول على خبز الإفطار." فجأة، تصاعدت أصوات صيحات شبان المخيم، مما جعل ليساء تهمس بغضب: "فيكم تمتهنون أي شيء، بدل هذا الصياح."

ردت أم سليم بحكمة: "من يهن يسهل الهوان عليه، ما لجرح بميت إيلم. عند البطون ضاعت العقول."

ابتسمت ليساء، ثم أضافت بتنهيدة: "وعقولنا شطّت حتى بنتي الصغيرة فقدت عقلها."

أم سليم، التي لاحظت القلق في عيني ليساء، سألتها: "لا تقولي ذلك، حبيبتي الصغيرة، كيف حالها؟"

ترددت ليساء قبل أن تعترف: "أنا قلقة بشأن صحتها النفسية. لقد شهدت الحرب وهي طفلة صغيرة، ثم العيش في المخيم كما ترين، يفتح النفس. أصبحت عهد كئيبة، تضع يديها على وجهها كل صباح، وتفكر في أيام الحرب."

سألت أم سليم بقلق: "هل تحدثك بما تفكر فيه؟"

أجابت ليساء: "نادراً ما تتحدث إليّ، إلا إذا رأت كوابيس مخيفة."

قالت أم سليم: "كان ينتاب سليم كوابيس عندما جئنا إلى المخيم، لكن حالته تحسنت بعد زيارة طبيبة المخيم."

سألت ليساء بفضول: "وهل هناك أطباء في المخيم؟"

أجابت أم سليم: "لا يسكنون هنا، لكن تأتي قافلة طبية كل أسبوع تقريباً لمتابعة الحالة الصحية لأهالي المخيم. من الأفضل استشارة الطبيبة للحصول على العلاج بالمجان. هم يتواجدون عادة يوم الأحد."

في المساء، انتقل المشهد إلى المسجد القريب حيث كان الإمام يخطب في الناس بخشوع. بدأ خطبته بحمد الله على نعمه، ثم تحدث عن السلم والوئام. خطبته كانت تعبر عن الأمل في تحقيق السلام والتعايش بين الناس رغم الصراعات.

بعد الخطبة، أشار الإمام إلى الأحداث الأخيرة، وقال: "نحن في غاية الحزن لما قرأناه في الصحف عن مقتل مواطن تركي في شجار مع أحد السوريين في غازي عنتاب. ندعو الله أن يتغمده برحمته ويسكنه فسيح جناته."

وأضاف: "نثمن جهود الحكومة التركية وشعبها تجاه اللاجئين السوريين. نحن ندعو إلى لم شمل الأسر السورية المتفرقة، ونؤكد أن أبناء سوريا يجدون في تركيا صدراً حانياً بعد أن جفاهم إخوانهم العرب."

ثم انتقل إلى الدعاء، قائلاً: "نسأل الله أن يطهر قلوبنا ويرزقنا الرضا بعد القضاء، وأن لا يحرمنا من لذة النظر إلى وجهه الكريم."

عندما انتهت الصلاة، بدأ الناس في التحدث عن خطبة الإمام، حيث وجدوا فيها رسالة أمل وطمأنينة في ظل الظروف الصعبة التي يعيشونها. كانت تلك اللحظة تعبيراً عن إيمانهم العميق بالسلام ورغبتهم في التعايش بسلام، رغم كل التحديات التي يواجهونها.

****

بينما كان المصلون ينصرفون من مسجد الجمعة، كان الهواء البارد يلفهم بعد أداء الصلاة. كان بعض الصبية يتحركون بين المصلين، يوزعون منشورات مكتوبة بخط واضح. انتزع أسامة الديب ورقة من أحدهم، وبدأ يقرأ بتركيز. كان النص يحمل خبراً من مديرية إدارة الهجرة في محافظة غازي عنتاب، يطالب جميع السوريين المقيمين في المدينة بضرورة تسجيل بياناتهم قبل نهاية العام. ذكر الخطاب أن التسجيل ضروري لتنسيق الخدمات المقدمة مثل الصحية والتعليمية والاجتماعية، وتحذير من إغلاق التسجيل بعد التاريخ المحدد.

ألقى أسامة نظرة على صديقه باهر سرحان، الذي كان موجودًا لتفقد أوضاع أهالي المخيم، وسأله: "أليس من المفترض أن تكون هذه البيانات موجودة بالفعل لدى الحكومة التركية عبر المفوضية السامية لشؤون اللاجئين أو حرس الحدود؟"

ضحك باهر وقال: "هل تلقيَ الحكومات اللوم على نفسها؟ لقد بالغ المام في الثناء على تركيا وكأن ليس لدينا دولة تضمنا."

نظر أسامة إلى باهر بقلق: "كانت دولة، اليوم صارت خراب."

قاطع باهر: "الدولة لم تسقط، هناك حرب داخلية لتعود الأمور إلى نصابها وقد تستغرق بعض الوقت."

ضحك أسامة بسخرية: "بعض الوقت؟ صار لنا أربع سنوات والأمور تزداد سوءاً."

رد باهر بحزم: "الأمور لم تزد سوءاً، وإلّا كيف تقام انتخابات تشريعية في البلد إذا كنا لا نستطيع السير في الطرقات؟"

تساءل أسامة: "يعني أنت مقتنع بكل هذا الكلام؟"

رد باهر بعفوية: "بالطبع مقتنع، ولهذا قررت الانضمام إلى الحزب الوحدوي الاشتراكي الديمقراطي الاجتماعي."

قال أسامة: "الله يوفقك، لكن ما فائدة الأحزاب ونحن نعاني من حرب أهلية؟"

أجاب باهر: "هذه الحرب سببها غياب البيئة التشريعية."

رد أسامة: "أنا كحقوقي، إذا عدت إلى سوريا سأشتغل في عمل الكنافة النابلسية. راحت علينا. يا ريت نغير الموضوع."

واصلوا السير نحو الخيام، وأثناء ذلك سحب أسامة يده من يد باهر، وسأله وهو يضغط على يده: "هذا الرجل الطيب لا يزال زوج ابنته مفقوداً. إذا أردت أن تسدي لنا جميلاً، ساعدنا على لم شمل هذه الأسرة."

قال باهر: "كما قلت لك سابقاً، لو كان الأمر بيدي، لعملت على إخراج المعتقلين السوريين دون مقابل. لكن 'يللي بيلعب القط بدو يتحمل خرميشو'."

رد أسامة بمرارة: "يعني ما بنعرف إذا كان حي أو ميت بدون أن ندفع ألف دولار؟"

أجابه باهر: "ويمكنك أن تسأل غيري إذا كنت لا تثق بي."

قال أسامة: "يا أخي، لا تأخذ الموضوع بشكل شخصي. هؤلاء الناس الطيبين في حيرة من أمرهم ويبحثون عن طرق لجمع هذا المبلغ. على العموم، ربي يكون في عونهم."

واصلوا السير في صمت، كل منهم غارق في تفكيره حول معاناة اللاجئين وأوضاعهم الصعبة، ومستقبل يظل ضبابياً رغم كل الجهود والتحديات.

****

جلس أسامة بجانب الباب المفضي إلى غرفة الاجتماعات، عينه تراقب كل حركة من خلال الشق في الباب. كان في انتظار انتهاء جلسة التفاوض التي تتم بين عهد، وليساء، والجد من جهة، وإيمير إيبيك من جهة أخرى. كان قلقًا بشأن النتائج، حيث كان يعرف أن كل قرار يتخذ هنا قد يكون له تأثير كبير على حياة هذه الأسرة.

عندما انتهت الجلسة، اتجه أسامة إلى الغرفة. وجد الجد وهو يجلس مستنزفًا، ووجهه يعكس مخاوفه وتردده. كان إيمير إيبيك قد غادر بالفعل بعد تسليم الوثائق والشرح النهائي.

"كيف سارت الأمور؟" سأل أسامة وهو يجلس بجانب الجد.

رد الجد بنبرة ثقيلة: "وقّعنا على السندات. حصلنا على قرض لثلاث سنوات، ويبدو أن الأمور قد تسير كما هو متوقع."

أجابت ليساء، وهي تقلب الأوراق الموقعة في يديها: "لم يكن لدينا خيار آخر. كنت بحاجة إلى المبلغ لنخرج والدها من المعتقل."

"لكن هل قرأتِ شروط القرض بشكل جيد؟" سأل أسامة بقلق. "لا أريد أن تتعرضوا لمشاكل إضافية بسبب الشروط التي قد تكون غير واضحة."

ابتسمت ليساء بحزن، وقالت: "قرأت الشروط، لكن الأمور هنا ليست كما في الخارج. أحتاج إلى هذا المال بأي ثمن. إذا لم أتمكن من دفع القرض، فليس لدينا أي شيء آخر نعمل عليه."

تنهد أسامة، ثم قال: "أنا هنا لمساعدتكم، وسأبذل قصارى جهدي للتأكد من أن كل شيء يسير على ما يرام. يجب أن نكون حذرين في المستقبل."

ثم انتقل الحديث إلى التخطيط للمرحلة القادمة، حيث بدأوا يناقشون كيفية استخدام القرض لإنشاء ورشة الخياطة التي ستمكنهم من تحسين وضعهم المالي. في الوقت نفسه، كان أسامة يخطط لكيفية جمع التبرعات اللازمة لدعم هذه المبادرة.

مع مرور الوقت، تحولت المخاوف إلى تحديات حقيقية. بدأت الورشة تأخذ شكلها، وأصبح هناك أمل جديد لعهد وعائلتها. لكن أسامة لم ينسَ أبداً الخوف الذي كان يشعر به أثناء تلك اللحظات الحاسمة، واستمر في مراقبة كل خطوة عن كثب للتأكد من أن الأمور تسير كما هو مخطط لها.

في النهاية، تمكنت ليساء من تأمين القرض واستخدامه بنجاح لفتح ورشة الخياطة، ومع مرور الوقت، أصبحت حياة الأسرة أكثر استقرارًا. وقد كانت تلك اللحظات الحاسمة دليلاً على صمودهم وإصرارهم على تحسين حياتهم رغم كل الصعاب.

****

جلس العميد بسيم أبو شنب في مكتبه، محاطًا بهدوء الغرفة البارد الذي لا يتناسب مع العاصفة التي كانت تدور في داخله. كانت أوراق ملف اعتقال باهر غضبان مفتوحة أمامه، كل ورقة منها تكشف جزءًا من القصة التي جمعها بحذر. كان العميد يتصفح الأوراق ببطء، يستعرض كل تفصيل وكل اعتراف، محاولًا جمع شتات المعلومات لتكوين صورة كاملة عن المتهم.

كان العميد بسيم أبو شنب شخصية قوية وذات هيبة. كان يلبس زيًا عسكريًا نظيفًا ومرتبًا، وتظهر على وجهه علامات الجدية وعدم التسامح. كان معروفًا بأسلوبه القاسي في التعامل مع المعتقلين، وغالبًا ما كان يستخدم أساليب الضغط النفسي والجسدي

للحصول على الاعترافات. قد يكون العميد من النوع الذي يفضل التهديدات والضغط أكثر من استخدام العنف المباشر، لكن صوته العالي وسلوكياته كانا كافيين لتخويف أي شخص.

غرفة التحقيق كانت عبارة عن مساحة صغيرة، جدرانها عارية وباردة. الإضاءة كانت خافتة، تضيف إلى الجو العام شعورًا بالضغط والتوتر. على أحد الجدران، كانت هناك نافذة صغيرة تتيح دخول بعض الضوء الطبيعي، لكنها كانت مظلمة بعض الشيء، مما جعل الغرفة تبدو أكثر كآبة.

في وسط الغرفة، كان هناك طاولة معدنية كبيرة عليها بعض الأدوات البسيطة مثل أوراق وأقلام. كان هناك كرسيان: واحد للضابط وواحد للمتهم. بجانب الطاولة، كان هناك أيضًا مقعد خشبي مع حزامين معدنيين على الجانبين، كان يُستخدم عادة لربط المتهمين أثناء التحقيقات.

دخل الشاويش جاسم إلى المكتب، برفقة باهر. كان باهر في حالة يرثى لها، شعره المجعد الطويل يلتف حول وجهه المرهق، وملابسه غير منظمة. بدا عليه الارتباك والضعف، ونظراته مشدودة إلى الأرض، كما لو أن الثقل الذي يحمله يثقل كاهله بشكل لا يطاق.

الشاويش جاسم كان شخصية أكثر برودة في التعامل. كان يتعامل مع المتهمين ببرود وبلا رحمة، مما يجعله يبدو كآلة تنفيذ الأوامر دون أن يظهر أي تعاطف. كانت مهمته الأساسية هي تأمين الغرفة وتنفيذ أوامر العميد، بما في ذلك إجراءات التعذيب الجسدي.

وقف الشاويش جاسم بجانب باهر، وألقى التحية الرسمية، لكن بدون أي تعبير على وجهه. نظر العميد بسيم إلى باهر نظرة مليئة بالازدراء، قبل أن يوجه إليه السؤال الأول: "هل تعلم لماذا نحن هنا؟"

رفع باهر نظره من الأرض، وعيناه مليئتان بالخوف والقلق. قال بصوت ضعيف: "نادى علي الشاويش فحضرت، لكنني لست متأكداً من السبب."

ضحك العميد بسيم بصوت عالٍ، ثم نظر إلى الشاويش جاسم قائلًا: "هل حصلت على موعد مع الأستاذ باهر قبل أن تجلبه إلى مكتبي؟ يبدو أنه مشغول جدًا هذه الأيام."

ثم صرخ العميد بسيم بشكل مفاجئ، مما جعل باهر يرتجف: "ماذا تعترف؟"

قال باهر بارتباك: "لقد شاركت في مظاهرات عديدة منذ بداية السنة، حتى نهاية العام 2011."

صرخ العميد بسيم بشكل حاد: "ما علاقتك بالجيش الحر والمسلحين؟"

تمتم باهر: "ليس لي علاقة بهم."

تسبب هذا الرد في غضب العميد بسيم، فلكمه على وجهه بقوة. ثم صرخ في الشاويش جاسم: "خذه إلى غرفة الشبح."

دفع الشاويش جاسم باهر بقوة من كتفه الأيسر، وهمس في أذنه: "أتمنى لك ليلة طيبة."

كانت غرفة الشبح مكانًا مرعبًا، حيث ترك الشاويش جاسم باهر معلقًا. كان باهر مضطراً للبقاء في وضع مؤلم، يديه مربوطة إلى أعلى الباب وقدميه تلامسان الأرض، مما يجعله في وضع يسبب له ألمًا شديدًا. لم يكن يستطيع سوى سماع صوت ضلوعه وهي تصرخ من الألم، بينما يشعل الشاويش جاسم سيجارة تلو الأخرى، دون أن يبالي بما يعانيه باهر.

بعد وقت طويل، جاء صوت العميد بسيم أبو شنب، الذي أمر الشاويش بإعادة باهر إلى التحقيق. كان باهر منهكًا، ومعالم التعب والإرهاق واضحة على وجهه وجسمه.

نظر العميد بسيم إليه من علو، وسأل ببرود: "حسنًا، هل فكرت جيدًا في الأمر؟"

رد باهر بلهاث: "نعم."

تنفّس العميد بسيم الصعداء، وسأله: "بماذا تعترف؟"

قال باهر بضعف: "أعترف بانضمامي إلى الجيش الحر والمسلحين."

ابتسم العميد بسيم، وعيناه تلمعان بالرضا، وقال: "ما هو دورك بالضبط؟"

فكر باهر لبرهة، ثم قال: "كنت أزودهم بما يحتاجون من سلاح."

وقف العميد بسيم، منتشيًا، وصارخًا: "شاويش جاسم، خذه إلى زنزانته."

رفع الشاويش جاسم يده اليمنى، موجهًا التحية العسكرية، ثم جرّ باهر إلى زنزانته. أثناء سيرهما في أروقة المبنى، همس الشاويش جاسم: "هل كنت فعلاً تزود المجاهدين بالسلاح؟"

نظرت عيون باهر إلى الشاويش، مليئة بالحسرة والندم، وأجاب بصوت مملوء بالأسى: "لم أر السلاح أمامي سوى عندكم."

ترك هذا الاعتراف أثرًا عميقًا على الشاويش جاسم، حيث فهم أن الحقيقية قد تكون أكثر تعقيدًا مما تبدو عليه. لكن، في نهاية المطاف، لم يكن بوسعه فعل شيء سوى الاستمرار في تنفيذ أوامر العميد.

****

في صباح هادئ، كان ضوء الفجر يتسلل عبر ثنيات الخيمة، محاولاً إيقاظ من بداخلها. وقفت أم سليم عند باب خيمتها، تنادي بصوت يملؤه الإلحاح، محاولةً إيقاظ ليساء التي كانت غارقة في نوم عميق. صرخاتها المتكررة كانت تملأ الأجواء، حتى استجابت ليساء أخيرًا، فزعةً ومربكة، وخرجت من الخيمة بسرعة.

"ماذا حدث؟ لماذا كل هذا الصياح؟" سألت ليساء، وهي تنظر إلى أم سليم بقلق.

"هناك أشخاص في الخارج يسألون عنك، يقولون إنهم يريدون تسليم بعض المتاع." ردت أم سليم بنبرة مليئة بالقلق.

أومأت ليساء برأسها، ثم قالت: "لحظة واحدة و سأخرج معك." دخلت الخيمة مرة أخرى، وأعطت عهد إشارة بالبقاء مع الجد، ثم هرعت مع أم سليم نحو الشاحنة المتوقفة على مشارف المخيم.

كانت الشاحنة بيضاء اللون، تحمل علامة تجارية DAF، وقفت على جانب الطريق كرمز للأمل وسط صحراء المحنة. سائق الشاحنة، رجل في الأربعينيات من عمره، كان يشرب سيجارة ويتكئ على الشاحنة، وعندما رآهما قادمتين، ألقى بالسيجارة وفتح الباب الخلفي للشاحنة.

"هل ستتمكنين من حمل الصناديق بمفردك؟" سأل السائق بلغة تركية لم تفهمها ليساء وأم سليم، وتبادلنا نظرات بلهاء.

"Tamam," أجاب السائق، وهو يبدأ في تسليم الصناديق على مرحلتين. كانت الصناديق تحتوي على أدوات خياطة، ستحول الأمل إلى واقع ملموس، ولكن التحديات ما تزال تلوح في الأفق.

في طريقهما إلى الخيمة، سألت أم سليم ليساء عن محتويات الصناديق. "ماذا تحتوي هذه الصناديق؟"

ردت ليساء وهي تحمل عبءًا مضاعفًا من القلق: "اقترضت مبلغ خمسة آلاف دولار لشراء أدوات خياطة أو لدفع مبلغ لفك اعتقال زوجي. أنا نفسي لم أعد أفهم تمامًا."

نظرت أم سليم إليها باستغراب، وقالت: "لكن لا تجيدين الخياطة."

تأففت ليساء، وقالت: "سيرسلون لنا من يعلمنا. أنا متخوفة من هذا المشروع أكثر منك، لكن هذا أملي الوحيد."

أم سليم حاولت تهدئتها، وقالت: "لا تقلقي على عهد، إن شاء الله ستفرج الأمور."

عندما عادتا إلى الشاحنة لاستلام الصناديق المتبقية، طلب السائق منها التوقيع على ورقة الاستلام. وقعت ليساء بتوقيعها الثقيل، وهي تعرف أن هذا قد يكون إما حلاً لمشكلتها أو زيادة في تعقيدها.

عادت ليساء إلى خيمتها وهي تحمل معها شعورًا مزدوجًا من الأمل والخوف. في أعماقها، كانت تأمل أن يكون هذا المشروع بداية جديدة لعائلتها، لكنها كانت واعية تمامًا أن الفشل قد يضاعف معاناتها. كان كل ما تأمل فيه هو أن يفرج الله عن زوجها، وأن تجد لابنتها عهد الأمان والراحة التي تستحقها في عالم مليء بالاضطراب.

****

قبيل الغروب، وقف سليم خارج الخيمة يلعب بطائرة ورقية، يتابع بحركاتها المتعرجة التي تتأرجح يمنة ويسرة، وكأنها تعكس التردد في قلبه. كان الصبي يستمتع بلحظات من السعادة البسيطة في عالم مخيم اللاجئين، لكن هذه اللحظات كانت عرضة لتقطع بوقوع أحداث غير متوقعة. بينما كان سليم يتنقل بين ظل الشمس المنخفض والأرض الرملية، اصطدم بشخص بدا غاضبًا، ملامحه متجهمة وعصبية.

أم سليم، التي بدت في تلك اللحظة كأنها طاقة غاضبة، صرخت على سليم بصوت عالٍ: "أين أبوك؟ لماذا خرجت من الخيمة من دون إذن؟" وبسرعة، جذبت سليم من كتفه وسحبته إلى داخل الخيمة. بعد ذلك، صرخت بوجه أسامة قائلة: "هل لي أن أسأل ماذا تفعل؟ لماذا لا تفكر أن لديك ولدًا مسؤولًا منك؟ تتركه يلعب بالطائرة كما يحلو له، ماذا لو فقدناه؟"

أسامة، الذي كان يركّز على أوراق بحثية، نظر إليها بامتعاض ثم رد بسخرية: "من المفترض أن أطلب من طفل لا يتجاوز العشر سنوات أن يمكث في الخيمة طوال اليوم؟"

أم سليم لم تقتنع بالرد، فقد كانت الغضب لا يزال يسيطر على ملامحها. "هذا الولد يفقد عقله وهو يلعب بالطائرة. وجدته مرة يسير خلفها في آخر المخيم، ماذا لو فقدناه؟"

سحب أسامة سليم من ذراعه، ثم قال: "دعيني أكلمه على انفراد." خرج أسامة بصحبة سليم يتجولان في المخيم. بعد أن ابتعدا قليلًا عن الخيمة، ربت أسامة على كتف سليم قائلاً: "لا تريد أن تحزن من كلام أمك. هي فقط تريدك أن تكون ولدًا مطيعًا."

نظر سليم إلى والده بعيون مليئة بالإحباط، ولم يكن لديه رد على كلمات والده. حاول أسامة تهدئة الصغير، فأضاف: "أتعرف، أنا وأمك لدينا خلافات في آرائنا حول العديد من الأمور. أنا أؤمن بالواقعية العلمية، بينما هي تؤمن بالنظرية الواقعية بمعناها الواسع."

سليم، الذي بدا أنه لا يفهم تمامًا ما يقوله والده، أدار رأسه بفضول. "ما علاقة هذا بلعبك بالطائرة الورقية؟" سأل الصبي بتساؤل.

ضحك أسامة قائلاً: "أعرف ما يدور في ذهنك. تقبل اختلافات الأمور التي يفرضها علينا الواقع يومًا بعد يوم. يقول أحد الحكماء: التعصب هو أول علامة على عدم كفاية التعليم. الشخص غير المتعلم يتصرف بنفاد صبر وتعجرف، بينما التعليم الجيد يولد التواضع وتقبل الآخرين."

واصل أسامة سيره مع سليم وهو يروي له عن أهمية تقبل الاختلافات وفهم الأمور من زوايا متعددة، مما ساعد سليم على الشعور بالراحة والهدوء، حتى وإن كان الصراع لا يزال قائماً داخل الخيمة.

****

جلست عهد فوق المقعد، مسحت الغبار من على الصناديق الكرتونية بتأنٍ، في حين بدأت ليساء تفرغ محتويات الصناديق بحذر. كانت اللحظة بمثابة استعادة الذكريات والتطلع إلى المستقبل في آن واحد. أمسكَت ليساء بعلبة الخيط وأخذت تدور الخيط في اتجاه عهد، مما أعاد إليها ذكريات طفولتها.

تذكرت كيف كانت تشاهد والدتها جالسة إلى ماكينة الخياطة القديمة، محاطة بهالة من الاحترام والتقدير. كانت تلك الماكينة جزءًا لا يتجزأ من جهاز العروس، حتى وإن لم تُستعمل بعد الزواج، شأنها شأن دولاب الفضيات والبيانو الذي يزين بيوت الطبقات الراقية. تلك الآلة كانت ترمز إلى بداية حياة جديدة وعائلات قادمة، وكان استخدامها يمثل جزءًا من تقاليد الزواج العريقة.

استحضرت ليساء ذكرى أول لقاء لها مع حماتها، حين جاءت لمعاينة بضاعة حمام السوق. كانت تلك اللحظة اختبارًا صعبًا، لكنها اجتزته بنجاح. بعد ذلك، بدأت فترة الخطوبة التي تخللتها إعداد الولائم والتجهيزات المختلفة. لا تزال تتذكر المكحلة الثرية النادرة التي استعملتها في يوم زفافها، وسؤال باهر غضبان الذي سألها كم اشتريت تلك المكحلة. نظرت إلى صورته المنعكسة على المرآة وقالت: "اشتريتها بروحي."

لكن ذكريات الأمس لم تكن كافية لتخفيف ثقل الواقع. عادت ليساء إلى اللحظة الراهنة، حيث كانت ماكينة الخياطة تلك تذكيرًا بذكريات أيام خلت، وموضعاً للأمل في حل مشكلاتها المالية والعائلية. بجانب ماكينة الخياطة كان هناك صندوق يحتوي على ألوان الخيوط المختلفة، وأحجام إبر الخياطة، والمقصات. تذكرت ليساء بعض الأبيات الشعرية التي لم تتذكرها منذ فترة، فقالت: "أل ليت الزمان يعود يوماً، وأغير في سعي عمري قراري، أل يا واقعاً قد صار حلماً، غصباً ما كان هذا هو خياري."

نظرت إليها الجد باهتمام، قائلاً: "أول مرة أسمعك تقرضين الشعر."

ردت ليساء بابتسامة عريضة، قائلة: "صرت فنانه، لذلك قررت أن أكتشف موهبتي الخاصة في التطريز للخروج من محنتي."

أجاب الجد بنبرة جدية: "ليس لدينا أي بديل آخر سوى التطريز."

كان الحديث بينهما يدور حول المستقبل المليء بالتحديات والأمل، بينما كانت ماكينة الخياطة تلك تتوسط مشهدًا يعكس مزيجًا من الماضي والحاضر، والتحديات التي تحاول ليساء مواجهتها بقدر من الأمل والجدية.

****

سأل سليم والده عن الفرق بين البلد والوطن، عاقداً حاجبيه بفضول الأطفال. كانت أم سليم جالسة بالقرب منه، فابتسمت وأجابت بعفوية: "الوطن بالنسبة لنا هو سوريا، لكن البلد هو تركيا."

نظر سليم إلى والدته بعينين ملؤهما براءة ودهشة، وقال ببراءة الأطفال: "سوريا ليست بلد؟" فقهقهت أم سليم وقالت: "وال يا بني، صرت تنطق بالحكمة."

ثم نظرت إلى أسامة الديب، الذي كان منهمكاً في قراءة بحثه، وأضافت: "الحكي لك يا كنة، اسمعي يا جارة."

رفع أسامة نظره من بين أوراقه، وكأنه لم يتابع حديثهم، وسأل: "عن ماذا كنتم تتحدثون؟"

قالت أم سليم: "الولد يسأل عن الفرق بين البلد والوطن."

تنحنح أسامة الديب ثم قال من موقعه كأنه معلم يلقي درساً: "الوطن ليس تراباً أو قطعة أرض أو دار أو ضيعة تُباع وتُشترى أو تُستبدل. الوطن هو انتماء، كامتداد متصل الجذور، كالوجود والقيم. من حق الوطن علينا أن نكون أمناء على ترابه وحدوده، فلا

نفرط في سيادته. من حق الوطن أن نحمل أمانته ونحفظ كرامته، فلا نسيء إلى صورته، ولا نتصرف بحمق بالولاء لغيره مهما كانت الأسباب والدوافع."

توجهت أم سليم بنبرة سخرية إلى أسامة وقالت: "الولد يسأل سؤالاً بسيطاً، فلا داعي للإسهاب."

ثم التفتت إلى صغيرها، وسألته: "فهمت الفارق بينهما؟"

أجاب سليم بحماسة وبساطة: "سوريا وطن وتركيا بلد."

أومأت أم سليم برضا، وقالت: "بلى، هيك صحيح."

استمر الحوار بين أفراد الأسرة، وكل واحد منهم يضفي وجهة نظره الخاصة في مسألة وطنية بسيطة، ولكنها تعكس جوانب متعددة من الفهم والهوية.

****

في المساء، تجمع أهالي المخيم حول شاشة التلفاز الموجودة بأحد الخيام، حيث أذاعت وكالات الأنباء أخباراً عاجلة عن بدء الهجمات العسكرية التي شنتها الولايات المتحدة، البحرين، الأردن، قطر، السعودية، والإمارات العربية المتحدة ضد تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام داخل سوريا. كما تم الإعلان عن الهجمات ضد جماعة خراسان في محافظة إدلب وجبهة النصرة حول الرقة.

أعلن المذيع بنشرة الأخبار: "في إطار التدخل العسكري ضد تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام، أعلنت الولايات المتحدة أن بعض غاراتها الجوية على سوريا استهدفت إحباط هجوم وشيك على الغرب من جانب مجموعة مرتبطة بالقاعدة تُسمى 'جماعة خراسان'. وقال الجيش الأمريكي إن القصف الذي استهدف حلب نفذه الجيش الأمريكي وحده. وأوضح متحدث باسم الجيش أن مجموعة خراسان 'كانت قد وصلت إلى المراحل النهائية في التخطيط لتنفيذ هجمات خطيرة'، فيما صرح الجنرال ويليام مايفيل، قائد عمليات البنتاغون، أن المجموعة كانت تستهدف شن هجمات 'في أوروبا وعلى أرض الوطن'."

توجه الجد نحو الخيمة، ووجه حديثه إلى ليساء وعهد: "هذا يكفي، حان وقت النوم!"

تذمرت ليساء قائلة: "لماذا لا تتركنا نتابع الأخبار؟"

لم يلتفت الجد إلى حديثها بينما كان يمشي نحو الخيمة. وعندما وصلوا، أغلق الجد مصباح الضوء، ونادى على عهد لتنام بجانبه. سألت عهد جدها: "ألن تحكي لي قصة اليوم؟"

أجاب الجد بملل: "أنا مرهق اليوم. غداً سأحكي لك حكاية جميلة." ثم قبلها وقال: "تصبحين على خير."

تغلق عهد عينيها، لكن النوم لا يأتيها بسهولة. فجأة، تستفيق من نومها على صوت ضجيج شديد. كان صوتًا يبدو وكأنه قادم من زمن بعيد، حيث ترى في أحلامها قصر العظم محاطاً بالجنود الفرنسيين. رجل في منتصف العمر ذو شارب طويل يرتدي سروالاً قماشياً أسود وقميصاً أبيض، ويحمل حزاماً من القرون الوسطى على خصره، يقف أمام جنوده صارخاً: "عليكم أن تقاتلوا بقوة أكبر مما قبل، إما النصر أو الشهادة!" تزداد صيحات الجنود حماسة، بينما يبدأ الجيش الفرنسي في قصف القصر وحي سيدي عمود بأكمله. سيارات الإسعاف والإطفاء تهرع لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

نزل طبيب من سيارة الإسعاف يرتدي زيه الأبيض وصاح في الجنود الفرنسيين: "نحن أطباء جئنا لإنقاذ المصابين." تقدم نحوه ضابط برتبة مقدم، وأجابه بعربية ركيكة: "ممنوع الدخول."

قال الطبيب: "هذه سيارات إسعاف وإطفاء. إذا أردت التفتيش، فلتفعل." ألقى الضابط بالسيجارة نحو العربات المنتظرة وقال: "إذا أردت أن تحترق، تفضل بالدخول."

نظر الطبيب إليه شزراً وقال: "أنت تحكم بالإعدام على أشخاص أبرياء ليسوا مجرمين." لكن الضابط أمر الجنود بإطلاق النار على إطارات السيارات، ثم قال: "علينا أن ننجز المهمة."

تستفيق عهد من نومها في حالة من الخوف الشديد، وتبدأ بالبكاء. تفزع ليساء من نومها كعادتها، وتسرع إلى عهد. قالت عهد وهي تبكي: "سيارة الإسعاف، سيارة الإسعاف!"

احتضنتها ليساء وقالت: "لا تخافي، حبيبتي. رؤية سيارة الإسعاف في المنام تعني أن سيطول عمرك، وهناك تغيير إيجابي في حياتك."

سألت عهد: "يعني ليس نذير شؤم؟"

ابتسمت ليساء وقالت: "اطمئني، حبيبتي. نامي ولا تخافي."

بعد أن تأكدت من أن عهد قد غفوت، خرجت ليساء زفيراً عميقاً. قالت في نفسها: "يجب أن نزور الطبيب. الوضع أصبح لا يُحتمل."

****

في فترة الظهيرة من اليوم التالي، ظهر أسامة الديب بصحبة سليم على باب الخيمة ينادي: "جدي، جدي، نحن ذاهبون إلى صالون الحلقة إن أردت أن تصحبنا."

تحرك الجد من مقعده في وسط الخيمة، ثم خرج إليهم وقال: "عفوا، أنا لم أفهم ما قلته جيدًا. هل تتحدث عن حلق؟"

ابتسم أسامة الديب قائلاً: "جدي، بدون الخوض في التفاصيل، 'باسم' جارنا في المخيم أقام صالونًا للحلقة بالمخيم مجاناً لمن لا يملك أجرة الحلقة."

استغرب الجد من كلمة "حلقة" ثم قال: "ثوانٍ، سأذهب معك." ثم التفت إلى داخل الخيمة قائلاً: "أنا بصحبة الأستاذ أسامة، لن أتأخر."

انطلقوا نحو خيمة الحلقة. تساءل الجد عن سبب ظهور حلقة فجأة في هذا المخيم، فسأله: "ما حكاية هذا الحلق؟"

رد أسامة متحيرًا: "أنا لا أعرف الكثير عنه، لكن زوجتي تقول إنه أسس صالون حلقة باستخدام مواد أولية كانت في طريقها إلى مكب النفايات مثل الكراتين الورقية، و البلاستيك الخاص بالتغليف، وبقايا أثاث."

استمع الجد إلى أسامة باهتمام ثم قال: "ألست سعيداً بأن هناك أشخاصاً مكافحين يساعدون على تحقيق أحلامهم؟ هذه المحاولات تمنحنا الأمل في إمكانية تغيير الواقع الأليم. يعني لا يزال هناك شباب مكافح يحاول أن يساعد أهل المخيم بأقل الإمكانيات."

لم يجد أسامة غضاضة في سماع كلمات الثناء، كيف لا وهو يسعى لتحقيق ذلك من خلال المشاركة في المؤتمر الذي سيعرف العالم بأزمة اللاجئين. لم يرغب الجد في التحدث عن مشروعه العظيم، بل اكتفى بزيادة الثناء على المبادرات الشبابية التي تخدم أهالي المخيم.

وصلوا إلى خيمة مكتوب عليها بالعربية والتركية "شكراً تركيا - Türkiye ederim Teşekkür." ترك أسامة الديب الجد بصحبة سليم ثم نظر إلى داخل الخيمة وألقى السلام، رد عليه السلام شاب متوسط القامة ذو شعر أسود قصير. ما أن لمح الجد بالخارج حتى أقبل مرحباً بقدومه: "مرحبا يا جدي، تفضل."

دخل الجد إلى خيمة يتوسطها سجادة تركية الصنع أهداه إياها أحد العاملين في المخيم. على اليسار، ثلاث كراسي خشبية حصل عليها باسم من أماكن تجميع النفايات. مقابل كراسي الانتظار، كان هناك كرسيان للحلقة مصنوعان من الخشب وتم تغليفها باستخدام قماش الخيام والغطاء البلاستيكي الذي يستخدم لتغليف المساعدات.

بعد أن جال بنظره في الخيمة قال الجد: "بارك الله في جهدك وعملك يا بني."

رد باسم مبتسماً: "وفيك بارك يا جدي، هذا جهد المقل."

ثم طلب من الجد الجلوس على كرسي الحلقة ليبدأ في حلقة شعره. قام باسم في البداية بقص بعض الشعر القليل في جوانب الرأس، ومن ثم ترك نسبة متوسطة من الشعر في أعلى الرأس. أثناء حلاقة شعر الجد، قام أسامة الديب من مقعده ونظر إلى الجد، ثم قال: "لقد عدت بالزمن عشرين سنة."

ضحك الجد ثم قال: "عشت ما يكفي." بعدما انتهى باسم من قص شعر الجد، ابتسم وقال: "نعيماً."

ثم نظر إلى أسامة الديب وقال: "من عليه الدور الآن؟"

أجابه أسامة بكل احترام وتبجيل: "هل يمكنك رجاءً قص شعر الصبي؟"

هب سليم واقفاً ثم جلس على كرسي الحلقة. حاول أسامة تسليته بالحديث عن الوضع في المخيم فقال: "الوضع في المخيم أصبح لا يسر عدو ولا حبيب. أنا كحقوقي أرى أن كثيراً من حقوق اللاجئين مهضومة في هذا المخيم."

قال باسم: "والله يا أخي يكفي أننا نعيش بعيداً عن الحرب."

قال أسامة: "بمناسبة الحرب، هل تتابع الأخبار في سوريا؟"

سكت باسم لوهلة ثم قال: "كيف لي أن أتابع؟ أظن أن الوضع من سيء إلى أسوأ."

قال أسامة: "يعني تدخل الولايات المتحدة لن يقضي على العنف في سوريا؟"

ضحك باسم ثم قال: "منذ بدء الثورة، راجت عندنا السياحة العسكرية. صرنا نسمع كل يوم عن طائرات التحالف الدولي بقيادة واشنطن، والتدخلات الفرنسية والروسية، حتى التركية والإسرائيلية استأسدت علينا. سماؤنا تلبدت بدخان البارود والصواريخ."

احتد صوت أسامة حينها: "لا شيء يشبه تحمل هذا الشعب الطيب المذلة والإهانة. لا يشبهنا أحد إلا الشعب الفلسطيني عندما شُرد إلى دول الشتات بُعيد قيام الكيان الصهيوني. صار نصف الشعب السوري مشرداً بعد الثورة."

حاول باسم تهدئة روعه قائلاً: "من لهجتك يبدو أنك من حلب."

قال بنبرة يملؤها السخط: "أنا من بلدة المشردين."

ترك باسم المقص على الطاولة ثم قال: "كانت تعشش في ذهني وقت الثورة صورة لوطن مزدهر ومتطور، بعيداً عن السرقة والاغتيالات والانتقام وتطبيق شرائع وأحكام تتوافق مع هوى من نصب نفسه 'آمراً ناهياً' بحكم سطوة المال والسلاح. لكن للأسف، بعد سقوط حلب في يد داعش، صرنا غنائم وأصبح يحق للغانم أن يسن قانوناً جديداً. العدالة باتت تتحقق بنزوة غضب لفلان من الناس أو بمجرد شك يخامر عقل أحدهم لينفذ حكمه بقطع رأس أو اختطاف أو اعتقال، والكرامة ذبحت على محراب الجوع والبرد والتشرد في براري الوطن. ما بين افتراش التراب أو اتخاذ الغابات والحراج بيتاً والتذلل لنيل لقمة الخبز إن وجدت."

ثم تلقف فرشاة الشعر لفك تشابك شعر الصبي، وضع منشفة حول عنقه وبدأ في قص أسفل الرأس. ساد الصمت لحظات قبل أن يعاود أسامة الحديث: "أظن أن غياب التنظيم والعمل الجماعي أدى لفقد السيطرة على المناطق المحررة وتقطعها بأيدي فئات

قليلة. كل فئة بما كسبت رهينة. قلة قليلة تكافح للحفاظ على نبض الثورة فيها، وتعاني الأمرين في سبيل تحقيق هدفها. فقد باتت الفئة الغريبة التي تمسك على مبادئها كالقابض على الجمر في ظل انتشار الفوضى."

قاطعه باسم قائلاً: "اعذرني أخي الغالي، أنا لا أفهم عليك. هل هناك وقت في حياة الإنسان انتظار اتفاق الثوار والمعارضة السورية على ممثل شرعي للشعب السوري؟"

قاطع أسامة قائلاً: "الكل يلوم معارضة الخارج على عدم توحدها وانقسامها، وعجز ثوار الداخل عن توحيد عملهم المدني أو العسكري. حتى المناطق المحررة تخلو تقريباً من التنظيم المدني."

قال باسم: "يا أخي، المناطق المحررة عبارة عن فوضى أو ساحة حرب."

قال أسامة كأنه لم يسمع كلمته: "المشكلة أن المنظمات الإغاثية والجهات الداعمة عجزت عن التخطيط والتنسيق فيما بينها لسد العجز الحاصل في مناطق دون أخرى."

قال باسم: "في حالة الحرب، كل هذه الكلمات لا تثمّن ولا تغني من جوع. طالما الحرب لم تتوقف، أنا لا أفهم العبارات المطاطية التي يستخدمها أصدقاء سوريا في المؤتمرات، لذلك لا أولي اهتماماً بتصريحاته، لأنها لن تحدث تغييراً على أرض الواقع."

قال أسامة: "لكنهم يحاولون تغيير الواقع."

قال باسم: "أنا درست مادة واحدة عن الفلسفة في المدرسة، وكانت تتحدث عن ماهية الأشياء. تخرجت من المدرسة ولم أفهم ماهية الأشياء التي كانوا يتحدثون عنها."

قاطعه أسامة: "عفواً، ما علاقة هذا بالموضوع؟"

قال باسم: "أنا أقصد أنني لا أجيد تعقيد الأمور أو استخدام عبارات رنانة لوصف الواقع. الواقع أننا نعيش حالة حرب في سوريا ونحن في انتظار نهايتها."

ثم أردف قائلاً: "في رأيي، سوريا في حالة حرب يتبعها إعادة إعمار، وفي كل الحالتين المستثمر أجنبي."

قاطعه أسامة قائلاً: "تعرف شيئاً؟ من السهل إعادة إعمار بناء البلد، لكن من الصعب إعادة بناء الوطن. سيستغرق إعادة بناء الوطن عقوداً."

قاطعه باسم هذه المرة: "قلت لك أنني لا أجيد الفلسفة. على العموم، لا تخف. الولايات المتحدة منفتحة على كل الثقافات. إن أردت إعادة إعمار على الطراز السلمي أو الروماني أو البيزنطي أو الأمريكي، كله موجود."

قال أسامة: "الموضوع ليس إعادة بناء المباني، كما قلت لك. المشكلة ستكون في إعادة بناء الأمة."

قال باسم: "دعنا نتحدث في المفيد. هل تفضل الحلقة وشفرات أم آلة الحلقة الكهربائية؟ "

****

في صباح اليوم التالي، وعلى بُعد خمسمائة متر شمال المخيم، وقفت شاحنة مساعدات طبية تابعة لمنظمة الإغاثة الدولية، خلفها كانت تقف العيادة المتنقلة التابعة للمنظمة. على يسار السلم المعدني الخاص بالعربة، كان يقف شاب في مقتبل العمر يرتدي سترة باللون الكاكي الفاتح مكتوب عليها باللون الأخضر الأحرف الثلاثة المختصرة لاسم المنظمة باللغة الإنجليزية: "IHR".

عندما اقتربت ليساء من الحافلة، سألها الشاب: "ما سبب الزيارة؟"

تلعثمت ليساء قليلاً ثم قالت: "ابنتي تعاني من اضطراب في النوم."

دون الشاب السبب في الدفتر الأبيض الذي يحمله، ثم دخلت ليساء إلى غرفة خالية إلا من ثلاثة كراسي خشبية صغيرة، بالإضافة إلى سرير الكشف، وبرافان ثلثي، وطاولة خشبية. جلست ليساء على أحد الكراسي الخشبية وجلس عهد إلى جانبها في انتظار الكشف. ثم دخلت عليهما طبيبة ترتدي معطفاً أبيض نقش على صدره شعار المنظمة. رحبت بهم الطبيبة بالعربية وعرّفت بنفسها: "أنا طبيبة سورية حديثة التخرج تطوعت بالمنظمة لمساعدة اللاجئين السوريين. أتمنى أن أنجح في مساعدتكم."

بعدما انتهت من تقديم نفسها، نظرت في الملف القابع على المكتب ثم قالت: "كيف حال طفلتنا الصغيرة؟"

نظرت ليساء إلى عهد علّها ترد على السؤال، لكن أسارير وجه عهد لم تتحرك تجاه محاولة الطبيبة "وصال" لتلطيف أجواء الزيارة. تداركت ليساء الموقف بسرعة وجاوبت بابتسامة عريضة نيابة عنها: "هي بخير، ولكنها تعاني من اضطرابات في النوم."

نظرت ليساء إلى عهد علّها تساعدها، فوجدت نفس علامات اللامبالاة على وجهها. وأردفت ليساء قائلة: "عفواً، هي خجولة بعض الشيء. منذ فترة ليست بالقصيرة، تنتاب ابنتي نوبات هلع أثناء النوم."

دونت "وصال" بعض الملاحظات في دفتر صغير، ثم نظرت إلى ليساء لتكمل حديثها: "كما تعرفين، حياتنا تزداد سوءاً يوماً بعد يوم. فبعد أن اعتقل زوجي، تحولت بلدتنا إلى جحيم يستحيل العيش فيها. لذلك جئنا إلى المخيم بعد رحلة لم تخلُ من العذاب."

سكتت ليساء لتبدأ الطبيبة في طرح بعض الأسئلة. بدأت ببعض الأسئلة البديهية: "لم تكن تعاني من نوبات الهلع أثناء الحرب في سوريا؟"

أجابت ليساء: "بالتأكيد كانت تصيبنا جميعاً نوبات ذعر عند سماع أصوات الطلقات والصواريخ القريبة من دارنا في حلب، لكن كان هذا طبيعياً أن نشعر بالخوف الشديد أثناء الحرب."

سألتها الطبيبة: "هل تظنين أن حالتها ساءت في المخيم؟"

تنهدت ليساء ثم قالت: "أظنها أصبحت أكثر انطوائية وقلّ كلامها حتى معي أنا وجده. رغم أنها تستمع باهتمام لحديث جدها، إلا أنها نادراً ما تطرح سؤالاً في سياق الحديث."

حاولت الطبيبة تحويل دفة الحديث تجاه عهد، فحملت كرسيها لتقترب من عهد، ومسكت يدها لتشعرها بالدفء، ثم سألتها: "ما اسمك؟"

نظرت عهد بعينين مليئتين بالريبة ثم همست باسمها. قالت الطبيبة: "عهد، لا أريدك أن تخافي، أنا هنا لمساعدتك." شدّت وصال على يدها مرة أخرى ثم تابعت الأسئلة: "ما هو أكثر شيء يضايقك في المخيم؟"

لم تحر عهد جواباً سوى أنها وضعت يدها على أذنيها. حاولت الطبيبة أن تهدئ من روعها وتبث الطمأنينة في نفسها، لكن دون جدوى. ثم وجهت الأسئلة التالية إلى ليساء: "هل تشعر بفقدان للشهية؟"

قلبت ليساء السؤال طويلاً في رأسها، وأرادت أن تقول "كل سكان المخيم يشعرون بفقدان الشهية"، قبل أن تستدرك قائلة: "نعم، لديها فقدان للشهية."

سألتها الطبيبة: "هل تشعر بالصداع؟"

نظرت ليساء إلى سقف العربة وقالت: "لم تقل إنها تشعر بالصداع، لكن أظن أن جميع سكان المخيم يشعرون بالصداع."

قامت وصال من كرسيها ثم قالت: "أنا لا أحبذ أن أكتب دواءً بعد أول جلسة، خصوصاً أن تشخيص الحالة غير مكتمل لدي." ثم أخرجت بعض الأدوات المدرسية من صندوق صغير بإحدى جانبي العربة، أخرجت قلمي رصاص، وأقلام ألوان، وأوراقاً

بيضاء، وعادت إلى ليساء قائلة: "كل ما أريده خلال الأسبوعين المقبلين، هو أن تعطي 'عهد' هذه الأقلام والأوراق كلما شعرت بالملل."

استخفت ليساء بالوصفة وقالت: "يعني ليس هناك حاجة إلى دواء؟"

قالت وصال: "لا تقلقي. أسهل شيء أن يكتب الطبيب دواء، لكن كما قلت، تشخيص الحالة غير مكتمل بالنسبة لي. لكن هذه الطريقة ستساعدني على تشخيص حالة عهد. بعدها يمكن أن أكتب لها دواءً في المرة القادمة."

ابتسمت ليساء ابتسامة صفراء وقالت: "شكراً يا دكتورة. سنعود بعد أسبوعين إن شاء الله."

****

أصطحب أسامة الديب ابنه سليم بعد عدة أسابيع إلى صالون الحلاقة بالمخيم، حيث شجعه عرض الحلقة المجانية بالمخيم على الاهتمام بمظهره ومظهر سليم. أراد أسامة أن يسأل باسم إذا كان من الممكن أن تتطوع إحدى النسوة بعمل خيمة لتصفيف الشعر بدون مقابل لنساء المخيم. بعد ذلك، يحتاج المخيم إلى "مكوجي" ليقوم بكي ملابس أهالي المخيم. نظر إلى بدلته التي يرتديها في فصول السنة الأربعة، ففكر أنه يجب أن يعتني بمظهره لأنه مقبل على مؤتمر دولي سيعرض فيه معاناة أهالي المخيم. كان يمثل باسم الحلقة الهم التي ستنقل للعالم أجمع معاناة أهالي المخيم. كان في قرارة نفسه يحترم مثل هذه المبادرات المجانية التي تقدم المساعدة لأهالي المخيم، لكنه كان يعتقد أن هذه المهن يمكن أن يقوم بها أي شخص، ولكن إذا لم يقم هو بمهمة محامي المخيم، فمن سيقوم بهذا الدور؟

وصل إلى خيمة الحلقة فوجد باسم جالساً على أحد كراسي الحلاقة يقرأ الجريدة. ما إن رآهم باسم على باب الخيمة حتى طوى الصحيفة وقال: "أهلًا وسهلًا."

قال أسامة الديب: "يبدو أنك مهتم بقراءة الأخبار."

رد باسم: "أشغل وقتي."

سأله باسم: "وما هي آخر الأخبار؟"

قال باسم: "نفس الأخبار، يبدو أن سوريا على أعتاب انتخابات نيابية وبلدية جديدة."

ضحك أسامة وقال: "كنت أحلم في يوم من الأيام أن أكون سياسيًا أو نائبا في سوريا."

نظر سليم إلى والده بعينيه المتعجبتين وسأله: "أبي، ما معنى نيابي؟"

رد أسامة: "النيابي هو من ينوب عن الشعب في مجلس النواب."

قال باسم: "بعيداً عن السياسة، من سيقص شعر سليم أولاً؟"

ضحك أسامة وقال: "بلى." ثم تلقف الجريدة من على الطاولة وتأمل صور المرشحين الذين سيخوضون الانتخابات. عاد به الذاكرة إلى أيام الجامعة، عندما قرر زيارة مكتب رئيس اتحاد الطلب بغرفة أعضاء هيئة التدريس. في ركن من أركان غرفة أعضاء هيئة التدريس بجامعة حلب، جلس رجل في منتصف الثلاثينيات على كرسي خشبي أمامه مائدة لا يوجد عليها شيء سوى بعض الملفات المهترئة. طرق أسامة الديب الباب بخفة ثم قلب نظره في الغرفة الفارغة من أعضاء هيئة التدريس، أسرع الخطى نحو الرجل الجالس في أقصى الغرفة وسأله: "عفواً سيدي، جئت أسأل عن رئيس اتحاد الطلب؟"

نظر إليه الرجل مستبينا ثم تابع انهماكه. تذمر أسامة من طريقة الرد لكنه تمالك أعصابه واستمر في حديثه: "عفواً سيدي، لم أرد تشتيت انتباهك، لكن كنت أريد الالتحاق باتحاد الطلب بالجامعة."

انتبه الرجل إليه باهتمام تاركاً كل ما يشغله ثم فتح وحدة أدراج المكتب وناول أسامة ورقة وقال: "بعد ملء الاستمارة والتوقيع على القرار يمكنك استلام بطاقة العضوية بعد أسبوع."

أراد أسامة أن يسأل عن كنيته، لكن هيئته تدل على أنه موظف وليس طالباً جامعياً. لم يترك "بديع" مجالاً للسؤال، وعرف الأسئلة التي تدور في ذهن أسامة فقال: "أنا أترأس اتحاد الطلب منذ سبعة عشر عاماً. لقد ساهمنا في ترميم البناء القديم للجامعة واستبدال الأبواب والنوافذ القديمة بقاعات التدريس، كما أصلحنا أجهزة الصوت في القاعات باعتبارها أمراً ضرورياً للوصول بصوت المحاضر. خلال رئاستي لاتحاد الطلب، طرحت عدة أمور أخرى وتم إرسال الشكاوى في وقتها إلى الجهات المعنية ومن ثم متابعتها وحلها."

توقف قليلاً ثم قال: "نقطة أخيرة نسيت أن أذكرها، حال تم إساءة إلى الطالب تستدعي أن نتدخل، ينبغي على الطالب أن يضع ثقته بنا وأن يتقدم لنا بشكوى. نحن نسمع بحالات عديدة، لكن عندما لا يدافع الطالب عن حقه، لا يمكننا أن نفعل شيئاً."

وقع أسامة على الاستمارة والإقرار بعدم التسجيل في كلية أخرى في نفس الوقت. قطع عليه الخ باسم حبل الذكريات عندما قال: "أستاذ أسامة، دورك."

ترك أسامة الجريدة على الطاولة وجلس على كرسي الحلاقة وهو يتأمل تطاير شعره أو حلمه في أن يكون سياسيًا ذا شأن في سوريا. سأل باسم هذه المرة: "يبدو أنك أصبحت لا تتابع السياسة."

قال أسامة: "بلى، أتابع."

قال باسم: "ما رأيك في المقترح الأمريكي لإنشاء قوة وطنية سورية لحماية الشعب السوري في الحرب الدائرة بين الجيش السوري وجيش النصرة؟"

ضحك باسم وقال: "هل تظن أن الولايات المتحدة حريصة إلى هذا الحد على حماية الشعب السوري؟ الموضوع كله حسابات سياسية. لكن بهذا الشكل، أظننا لن نعود أبداً إلى سوريا."

استغرب أسامة الديب ثم قال: "أظن أنك متشائم أكثر من اللازم. الحرب الدائرة ستنتهي قريباً ومن ثم نعود إلى سوريا."

سكت باسم لحظة قبل أن يقول: "كان لوالدي صديق فلسطيني هاجر إلى سوريا بعد الاحتلال الصهيوني للأراضي الفلسطينية عام 67 وظل يردد لمدة أربعين عاماً أنه اقترب من العودة إلى دياره حتى توفاه الله."

نظر إليه أسامة متعجباً وقال: "لكن سوريا ليست فلسطين. اسمح لي أن أختلف معك. الوضع مختلف، الصهاينة احتلوا الأرض وطردوا الفلسطينيين من بيوتهم، لكننا فقط تركنا بيوتنا بسبب الحرب."

قال باسم: "أخشى أن يسرقنا الوقت في حلم العودة إلى سوريا ومن ثم نجد أبنائنا وأحفادنا نشأوا وكبروا في مجتمع آخر، وأصبحت سوريا بالنسبة لهم تاريخاً ليس أكثر."

قال أسامة بنبرة تملؤها الحزن: "أظن أنك متشائم أكثر من اللازم. سنعود إلى حلب قريباً."

****

خرج أسامة الديب من خيمة الحلقة مكفهر الوجه، بعدما منحه حديث باسم بطاقة سلبية تحتاج إلى عدة أيام للتخلص منها. في طريقه إلى خيمته، أخذ يحادث نفسه: "أنا ما زلت في انتظار معجزة تنشلني من هذا الوحل. من الذي يضمن لنا أننا سنعود إلى وطن يصلح العيش فيه قريباً؟"

تذكر ميثاق الأمم المتحدة وقال في نفسه: "أنت أكثر واحد يعرف أنه يمكن تفسيره حسب المعطيات السياسية. وإذا كان حقيقة، لماذا ظل حق عودة الفلسطينيين حبرًا على ورق منذ عام 1948؟" بدأ ينتقد نفسه لأول مرة: "من أنا؟ أنا ما زلت أنتظر فرصة

لم تحن لي في سوريا، وصرت أبحث عنها في بلد بالكاد أستطيع أن أنطق فيه خمس كلمات من لغته مثل: عربية، مرحبا، شكراً، شاي، تمام."

بينما هو غارق في جلد الذات، تذكر أنه نسي أن يمر بخيمة الجد يصطحبه إلى الحلاقة. فترك سليم يدخل خيمته وذهب إلى الخيمة الأخرى التي تبعد عشرة أمتار عن خيمته. ما إن وصل، وجد الجد جالساً على كرسيه الخشبي الصغير قبالة الخيمة. اقترب من الجد وقال: "جدي، اعتذر لك لأنني نسيت أن أصطحبك معي إلى خيمة الحلقة."

رشف الجد من كوب الشاي رشفة واحدة ثم قال: "لا عليك، لم أعد أنظر في المرآة. أنا لا أقبل أحد تقريباً." ثم أشار إليه بالجلوس على الكرسي الخشبي المهترئ بجانبه. جلس أسامة على الكرسي وسأله السؤال الوجودي الذي يشغل باله: "متى سنعود إلى سوريا؟"

ارتشف الجد رشفة أخرى من كوب الشاي ثم قال: "يمكنك أن تسأل هذا السؤال ابنتي أو حفيدتي، لكنني صارت أيامي معدودة في هذه الدنيا، لذا لا يشغلني هذا الأمر كثيراً."

تلجلج أسامة قبل أن يقول: "أنا لا أقصد مضايقتك، ولكن كنت عند باسم الحلاق ودار بيننا حوار عن العودة إلى سوريا. تصور يا جدي، يظن أننا سيطول المقام في المهجر مثل الفلسطينيين حتى يصبح حلم العودة إلى الوطن سراباً تبخر مع الوقت."

ارتشف الجد رشفة أخرى من الشاي ثم قال: "حديثك يذكرني بتعداد إحصائي للمهاجرين السوريين منذ القرن الثامن عشر، أي منذ أن كانت سوريا تحت الحكم العثماني. في عام 1820، بعد الأزمات الاقتصادية التي تعرضت لها بلاد الشام أثناء الحكم العثماني، بدأت الهجرة السورية الأولى إلى شتى بقاع الأرض. وكانت مصر والولايات المتحدة وأمريكا الجنوبية وجهة الهجرة الأساسية. ثم يعتبر عام 1970 تاريخ الهجرة السورية الثانية، خصيصاً إلى أمريكا الجنوبية ودول الخليج العربي، والآن نحن نعيش الهجرة السورية الثالثة."

ثم أضاف: "تعرف شيئاً، بحسب هذا التعداد، هناك أربعون مليون سوري هاجروا خلال الفترتين السابقتين. احتفظ منهم عشرون مليون فقط بجنسيتهم أو أسمائهم العربية، بينما انصهر الباقي كلياً في مجتمعاتهم الجديدة."

****

عاد أسامة الديب أدراجه إلى خيمته فوجد أم سليم جالسة أمام الخيمة، وجهها متعب وعيونها غائرة وكأنها لم تنم منذ زمن. دخل الخيمة ونداء عليها من الداخل: "ما الغذاء اليوم؟" تركته أم سليم بدون رد، ثم خرج برأسه من الخيمة وسألها: "ماذا حل بكِ؟ لماذا لا تردين؟"

تأففت بضيق وزفرت نفساً عالياً، ثم قالت: "اللي بيعرف بيعرف، واللي ما بيعرف بيقول كف عدس." نظر إليها أسامة بحدة، وقال: "فيك تردي؟ الغذاء عدس؟" وقفت لتدخل الخيمة وقالت: "الغذاء عدس، هيك ارتحت."

دخل أسامة إلى الخيمة وبدأ في تناول الغذاء مع أسرته. قص عليها نص الحوار الذي دار بينه وبين باسم والجد. ضحكت بأسى وقالت: "كنت تظن أن أحدهم يوافقك الرأي بأننا سنعود لنجد سوريا أصبحت جنة بعد أن صارت جحيماً؟"

تنهد قائلاً: "أيام الدراسة كنت أعتقد أن سوريا جزء لا يتجزأ من الوطن العربي الكبير الذي تعلمت رسم خريطته عن ظهر قلب. بعد الثورة اكتشفت أن هذا 'الوطن العربي' مختلف عن ذاك الذي درسته. أقصد بعد أن أغلقت كثير من البلدان أبوابها في وجوهنا، بدأت أشعر أن الوطن العربي هو مزيج من شعوب وأعراق وأديان ومذاهب، ثقافات ولهجات تكاد تكون لغات بحد ذاتها. بدأت أشعر أن لدينا قواسم ثقافية مشتركة بيننا وبين المجتمع التركي."

ابتسمت أم سليم ونظرت إليه مستغربة. قال أسامة: "لماذا تستغربون؟ هذا ليس تغييراً في وجهة نظري. ألا تلاحظين التشابه بيننا في طرق المطبخ وأشكال اللباس وأنواع الرقصات الشعبية وضروب الموسيقى والعادات الاجتماعية والأمثال الشعبية وغيرها؟"

ضحكت أم سليم وقالت: "صار لنا أقل من سنة هنا ولم نعرف التحدث بالتركية، وخلص صرنا أتراك أكثر من كوننا عرب." قال باسم: "أنا أتفق أن اللغة هي الحاجز الوحيد بيننا، ولكن غير ذلك، نحن متشابهون في كل شيء."

قالت أم سليم: "يعني ستكون سعيداً إذا أصبحت مواطناً تركياً تعيش على الكفاف؟" قال أسامة: "لماذا تغيرين الموضوع؟" قالت: "لأنك تشغل نفسك بأمور استراتيجية نحن في غنى عنها، ونحن نعيش تحت خط الفقر المدقع، وكل ما يشغلنا هو حجم التشابه والاختلاف بيننا وبين الأتراك."

ترك أسامة مائدة الطعام وقال: "أخطأت عندما قررت التحدث معكِ."

****

من مخيمات الغربة إلى حلم العودة

وقف الجد هذه المرة أمام متجر إيمير إيبيك، منتظراً استلام مبلغ الألف دولار المتفق عليه كجزء من الدين. جذب انتباهه أحد اللوحات الزيتية الصغيرة التي تعرض منظر جامع "أورطة كوي" على شاطئ مضيق البوسفور. تأمل الجد اللوحة وتمنى لو قضى الوقت المتبقي له في الحياة بين جدران هذا المسجد، يتنسم نسيم البحر بعيداً عن ضوضاء المخيم. لن يعكر صفوه سوى عراك الصيادين أو غنائهم على حسب حالتهم المزاجية.

ثم تذكر أن المسجد أصبح مزاراً سياحياً، وسيصبح هو أيضاً مزاراً سياحياً بالتبعية إذا قرر المكوث داخل المسجد. قطع حبل أفكاره صوت إيمير إيبيك قائلاً: "أهلا وسهلا، تأخرت عليك."

قال الجد: "لا أبداً." ناول إيمير المظروف الأبيض الصغير الذي يحتوي على مبلغ الألف دولار وصوراً من إيصالات الدين الموقعة من الطرفين. استلم الجد الظرف ونظر إلى محتواه. قال إيمير: "هذا المبلغ المبدئي المتفق عليه، باقي المبلغ يسلمونه على دفعات كنسبة من أرباح البضاعة المستلمة."

رسم الجد ابتسامة باهتة على وجهه ثم قال: "شكراً على مساعدتك، أسأل الله أن نكون عند حسن الظن."

وضع الجد الظرف في جيبه وقال: "نراك بعد شهر من الآن، أليس كذلك؟"

ابتسم إيمير وقال: "تمام."

في الأيام التالية، ظل الجد منشغلاً بتفاصيل حياته في المخيم. عمل على تأمين بعض الأمور البسيطة التي قد تسهل عليه الأمور، مثل التعامل مع الدائنين والبحث عن مصادر دخل إضافية. بينما كان المبلغ الأول من الدين قد تم استلامه، كانت أمامه مهمة جمع المبلغ المتبقي من خلال الأرباح التي سيحققها من البضاعة. كان يعقد آمالاً كبيرة على هذا المال لتلبية احتياجاته واحتياجات عائلته.

مرت الأسابيع سريعاً، ووجد الجد نفسه متورطاً في تأمين البضاعة وتعاملات أخرى. بالرغم من محاولاته، كانت الأمور صعبة، وكان الجد يعاني من ضغوط متعددة. تكاليف المعيشة في المخيم تتصاعد، ومشاكل العائلة لم تكن بعيدة. أحياناً كان يتمنى لو يمكنه فقط الاستقرار في مكان هادئ بعيداً عن صراعات الحياة اليومية.

جاء اليوم المنتظر، وهو موعد استلام الدفعة التالية من المبلغ المتبقي. كان الجد يتمنى أن تكون الأمور قد سارت على ما يرام وأن يكون قادراً على تسديد المبلغ بشكل مريح. قرر الذهاب إلى متجر إيمير إيبيك في الصباح الباكر.

عندما وصل، كان متجر إيمير هادئاً كالمعتاد. استقبله إيمير بابتسامة ودية، ولكن الجد لاحظ أن وجهه يبدو شاحباً قليلاً. تبادلوا التحية، ثم توجهوا إلى المكتب حيث كان إيمير قد جهز المبلغ المستحق.

قال إيمير: "أهلاً مجدداً، أعتقد أننا جاهزون لتسوية الأمور."

قال الجد: "أرجو أن يكون كل شيء على ما يرام. لقد مر وقت طويل منذ آخر مرة."

ناول إيمير المظروف الذي يحتوي على المبلغ المتبقي من الدين، وقد أرفقه بشهادة أخرى توضح تفاصيل السداد. نظر الجد إلى المظروف، ثم أعاد النظر إلى إيمير وقال: "شكراً لك على الصبر والتعاون. لم يكن الأمر سهلاً، ولكن نقدر مساعدتك."

أجاب إيمير: "أنا سعيد لأن الأمور سارت على ما يرام. تأكد من أن أي مساعدة تحتاجها في المستقبل، أنا هنا دائماً."

عاد الجد إلى المخيم محملاً بالأموال، وبدأ يشعر براحة نسبية. ومع ذلك، فإن العودة إلى وضع الحياة الطبيعية في المخيم كانت مسألة تحتاج إلى وقت وصبر. كان يعلم أن الخطوة التالية هي تنظيم أموره بشكل أفضل والتفكير في المستقبل.

مرت الأيام والشهور، وبدأ الجد يشعر بالتحسن في وضعه المالي. لم يكن الأمر سهلاً، ولكنه كان قادراً على تحمل الضغوط وتلبية احتياجات عائلته. وبالرغم من الصعوبات، ظل يحتفظ بالأمل في أن تعود الأمور إلى مجراها الطبيعي، وبدأ يحلم بأن يأتي يوم يمكن فيه العودة إلى وطنه الحبيب، حتى وإن بدا ذلك بعيد المنال.

****

في يوم الجمعة، وقف الإمام على منبره في المسجد، تحدث عن حب الوطن في السلم، فقال:

"عباد الله، إن حب الوطن غريزة فطرية في الإنسان، وما من إنسان إلا ويعتز بوطنه؛ لأنه مهد صباه ومدرج خطاه ومرتع طفولته، وملجأ كهولته، ومنبع ذكرياته، وموطن آبائه وأجداده، ومأوى أبنائه وأحفاده. حتى الحيوانات لا ترضى بغير وطنها بديلاً، ومن أجله تضحي بكل غالٍ ونفيس. الطيور تعيش في عشها في سعادة ولا ترضى بغيره ولو كان من حرير، والسمك يقطع آلاف الأميال متنقلاً عبر البحار والمحيطات ثم يعود إلى وطنه. وهذه النملة الصغيرة تخرج من بيتها ووطنها، فتقطع الفيافي والقفار، و تصعد على الصخور وتمشي على الرمال تبحث عن رزقها، ثم تعود إلى بيتها. بل إن بعض المخلوقات إذا تم نقلها عن موطنها الأصلي فإنها تموت. ولذا يقول الصمعي: ‘ثلاث خصال في ثلاثة أصناف من الحيوانات: البل تحن إلى أوطانها وإن كان عهدها بها بعيدًا، والطير إلى وكره وإن كان موضعه مجدبًا، والإنسان إلى وطنه وإن كان غيره أكثر نفعًا.’

وقد روي في ذلك أن مالك بن فهم خرج من السراة (بلدة بالحجاز) يريد عمان، وقد توسط الطريق، حنت إبله إلى مراعيها، وقبلت تلتفت إلى نحو السراة وتردد الحنين؛ فقال مالك في ذلك:

تحن إلى أوطانهـــــــا إبل مالك
ومن دونهـــــــــــا عرض الفل والدكادك
وفي كل أرض للفتى متقـــــــــلب
ولست بدار الذل طوعا برامـــــــــــــــك
سيغنيك عن أرض الحجاز مشارب
رحاب النواحي واضحات المسالك

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم."

ثم جلس الإمام جلسة الاستراحة، وأضاف:

"أحبتي في الله، من حق الوطن علينا أن نحبه؛ وهذا ما أعلنه النبي صلى الله عليه وسلم وهو يترك مكة تركًا مؤقتًا؛ فعن عبد الله بن عدي أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو واقف على راحلته بالحَزْوَرَة مِنْ مَكّةَ يقول: ‘والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إليّ، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت.’

لقد هاجرنا إلى بلد آخر فراراً من الحرب وليس بغضا للوطن. نثمن جهود تركيا في استضافة اللاجئين السوريين بل ومنحهم جنسيتها، ولكن لا تناقض بين حب وطننا وتقدير البلد الذي استضافنا وساعدنا في محنتنا."

بعد انتهاء الخطبة، تفرق الجمع، والتقى أسامة الديب صديقه باهر سرحان بعد الصلاة. ابتسم أسامة وقال:

"صار لك شهر تقريبًا لم تأت إلى المخيم."

أجابه باهر:

"مشاغل والله."

قال أسامة:

"آه، نسيت أنك أصبحت سياسيًا. مشاغلك كثيرة هذه الأيام."

قال باهر:

"أنا أصبحت عضو لجنة تنسيق المبادرات في اللجنة الشبابية بالحزب."

قال أسامة مبتسمًا:

"غدًا تترقى في المناصب."

ثم أخرج مظروفًا من جيبه وقال:

"هذا المبلغ المتفق عليه."

فتح باهر المظروف وعد الدولارات وقال:

"ألف دولار مضبوط."

أبتسم أسامة وقال:

"مضبوط. نريد أن نعرف إذا كان على قيد الحياة."

أجاب باهر بكل حزم:

"سأخبرك الشهر المقبل، إن شاء الله."

****

جلست ليساء على كرسيها أمام ماكينة الفراشة، تخيط العلم السوري. احتارت في البداية بشأن أي علم تختار؛ هل علم الثورة أم علم الدولة؟ تذكرت الانقسام العربي والدولي بشأن الثورة السورية، وكيف أن حتى أكبر الدول في العالم لم تستطع اتخاذ موقف واضح، لكنهم اتفقوا جميعًا على محاربة الإرهاب. تأملت واقعها المرير وتذكرت أن العلم أو الوشاح سيشتريه سائح قد لا يهمه كثيرًا الوضع في سوريا، بل سيلفت انتباهه فقط الألوان. قررت في النهاية أن تطرز العلمين، وقالت في نفسها "الذي يدفع المال يستحق ما يطلب."

قبل أن تبدأ في التطريز، اقتربت منها عهد بقطعة ورق رسمت عليها وجهًا حزينًا. قالت لعهد: "ما رأيك؟" نظرت ليساء إلى الرسم غير مستغربة، ثم قالت: "جميل، لكن كئيب بعض الشيء. لماذا لا ترسمين شيئًا مبهجًا؟ حاولي مرة أخرى."

كان الجد جالسًا على كرسيه الخشبي داخل الخيمة، يراقب رسومات عهد محاولًا فهم مغزاها. لم يكن يجد في محيطه منظرًا أجمل يتأمله، ولكن صوت ماكينة الفراشة المزعج أفسد تأملاته، فسأل ليساء عن ما تفعله. نظرت إليه بتعجب واستهجان وقالت:

"أخيط ثياب زفاف." نظر إليها مستغربًا وسأل: "هل هناك فرح قريب في المخيم؟" ردت ليساء بلهجة مليئة بالإحباط: "فرحي؟ يا أبي، أنسيت أننا اتفقنا على تقسيط ثمن هذه الماكينة مقابل قرض يساعدنا في معرفة مكان باهر؟" نظر إليها بدهشة وقال: "كبرت الباذنجانة ودلدلت جراسها ونسيت الطين الذي كان فوق رأسها."

أنهت عهد رسمتها وسلمتها ليساء، التي حاولت أن تفهم معنى الخطوط المتشابكة التي رسمتها عهد هذه المرة. لكنها قررت أن تواصل جهودها، فقالت: "أحسنتِ حبيبتي، الآن حاولي أن ترسمي طفلًا جميلًا بملامح واضحة. أعرف أن الرسم صعب، لكنه مسلي، أليس كذلك؟" ردت عهد: "بلى."

****

ها قد مضى شهر على اتفاق ليساء مع إيمير إيبيك، وحان الوقت لتسليم ما خَاطَتْه من أعلام. استيقظت عهد على صرخات ليساء التي تذكّرها بضرورة الاستعداد ليوم طويل. نادى الجد، الذي كان لا يزال مغطى بالنوم، قائلاً: "كتب علي أن أستيقظ كل صباح على نفس الهمس." حاولت ليساء أن تتمالك أعصابها ثم قالت: "هل نسيت موعد سداد القسط الأول من القرض؟" أجاب الجد بوجهٍ مليء بالنعاس: "اليوم الأول من الشهر." قالت ليساء بتذمر: "نعم، اليوم الأول الذي سنقضيه في المواصلات، لذا علينا الاستيقاظ مبكرًا."

قام الجد من فراشه وقال: "انتظري، سأغسل وجهي وأتوجه معكم." حاولت ليساء مرة أخرى لإيقاظ عهد من نومها العميق، حتى بدا وكأنها بحاجة لمن يرش عليها الماء لتستيقظ. بعد ساعة من المحاولات، كانوا جميعًا جاهزين للانطلاق في رحلتهم الطويلة.

بحلول المساء، وصلت حافلة النقل العام إلى سوق "أراستا" بعد رحلة استغرقت إحدى عشرة ساعة. ساروا بخطوات هادئة نحو متجر "إيمير إيبيك". كان إيمير يقف أمام باب المتجر يتفاوض مع أحد السائحين حول ثمن هدية تذكارية. عندما وصلوا إلى المتجر، أشار لهم إيمير بالانتظار، ثم قال: "ما إن أنتهي سأكون معكم." بعد دقائق، عاد إليهم مبتسمًا وسألهم: "هل تريدون شرب شيء؟" نظر إليهم ورآهم منهكين من طول السفر، فقال: "أي شيء، قهوة، عصير؟" نظر إلى وجوههم المتعبة ولم يجد ردًا، فشعر أنهم سينامون على الأرض من التعب، فطلب من أحد الصبيان إحضار عصير برتقال لهم.

جلس إيمير على كرسيه في صدر المحل وسألهم عن حالهم في المخيم وعن رحلتهم. بعد أن شعر أنهم أخذوا قسطًا من الراحة، سأل ليساء عن حالها مع الخياطة. أجابت ليساء: "أعتقد أن الخياطة مهنة مسلية بالنسبة للنساء، أمي رحمها الله كانت تخيط بعض الأقمشة البسيطة في البيت."

قال إيمير: "جيد، يعني لديك فكرة جيدة." ردت ليساء: "نعم، بالنسبة لخياطة العلم، الأمر سهل، يمكنك معاينة العلم المخيط." ارتشف الجد رشفة من عصير البرتقال ثم ناول إيمير حقيبة العلم قائلاً: "خياطة العلم أسهل بكثير من مشقة السفر من غازي عنتاب إلى إسطنبول. لو كان لديك من يستلم منا البضاعة، سيكون أفضل."

أجاب إيمير: "أعتذر، لكن كما ترون، ليس لدي مساعدين في المحل، ولا أستطيع مغادرة إسطنبول إلا في الأوقات الضيقة. لكن إذا وجدت من يستلم منكم العلم من المخيم، سأخبركم." ثم بدأ بإخراج العلم من الحقيبة، تصفّح العلم السوري ثم قال: "كم عددهم؟" نظر الجد إلى ليساء مستفسرًا، فقالت: "خمسون." قال إيمير: "جيد. لعلكم سمعتم عن العدوان الإسرائيلي على حي الشجاعية في غزة. العالم اليوم متعاطف مع القضية الفلسطينية، أريدك أن تخيطي العلم الفلسطيني بجانب العلم السوري، ونتقابل بعد شهر."

رشفت ليساء العصير ثم قالت: "تمام." التفت الجد إلى ليساء ليسألها إن كانت نسيت شيئًا، لكن يبدو أن طول السفر قد أنساها. قال الجد: "عفوا، إيمير بيك، لكن هل هناك مقابل عن كل دفعة تتسلمها منا؟" قال إيمير: "أول ست دفعات تُعتبر جزءًا من حساب الماكينات والألف دولار التي استلمتها." قال الجد: "تمام، يجب أن نسدد الدين أولًا ثم تحصل على النقود؟" أجاب إيمير: "بالضبط."

****

بعد مضي يومين، كانت عهد وليساء في موعد آخر مع طبيبة المخيم. جلست ليساء بصحبة عهد في انتظار دورهم في الكشف، وسألتهم الطبيبة المساعدة: "هل قمتم بتسجيل بياناتكم؟" ردت ليساء: "بلى، منذ أسبوعين تقريباً باسم 'عهد باهر غضبان'." قلبت الطبيبة الملفات الموجودة على سطح المكتب ثم قالت: "أمامكم حالتان." جلسا في انتظار دورهم.

عندما جاء دورهما، شدّت ليساء يد عهد اليسرى وهما يدخلان إلى غرفة الكشف. رحبت بهما الطبيبة ابتسامة فاترة وقالت: "تفضلوا، كيف حالكم؟" أجابت ليساء: "بخير الحمد لله." ثم التفتت الطبيبة إلى عهد وسألتها: "كيف حالك، صغيرتي؟" لم ترد عهد، وببساطة لم يظهر على وجهها أي علامات. حاولت الطبيبة مرة أخرى لعلها تتجاوب معها وسألتها: "لماذا لا تبتسمين؟" شعرت ليساء بالحرج من الموقف، نغزتها لتبتسم لكنها لم تستجب.

قالت ليساء: "عذراً دكتورة، قلت لك في المرة الماضية أن عهد طفلة خجولة جداً." قالت الطبيبة وصال: "لا بأس، كنت طلبت من عهد أن ترسم لي بعض الرسومات، هل أحضرتموها؟" تلجلجت ليساء قليلاً ثم قالت: "تفضلي." قلبت وصال الرسومات وبدت على وجهها علامات القلق، ثم وضعت الرسومات على المكتب وقالت: "سأحتفظ بهذه الرسومات كجزء من تشخيص الحالة."

سألت ليساء: "هل ترغبين في المزيد من الرسومات؟" أبتسمت الطبيبة وصال وقالت: "لا، هذا يكفي. سأعطيك دواء يساعدها على الخروج من هذه الحالة." تسلمت ليساء علبة الدواء المكتوب عليها بالتركية antidepresan 50. قالت: "معذرة يا دكتورة، هل يمكن معالجتها بدون دواء؟"

مسحت الطبيبة نظارتها بقطعة قماش ثم ارتدتها وقالت: "عهد لديها التراوما (صدمة نفسية)، وهذا أمر طبيعي نظراً لظروف الحرب التي عاشتها. لكي أجيب على سؤالك، ممكن العلاج والتخلص من الاكتئاب بدون استخدام الأدوية باستخدام جلسات العلاج النفسي، لكن نظراً للوضع الصحي بالمخيم ولأني طبيبة عامة، فلا نملك رفاهية العلاج بدون دواء."

قالت ليساء: "حسناً، ولكن كم عدد الحبات التي يجب أن تتناولها يومياً؟" قالت الطبيبة: "في الوقت الحالي، يتعين عليها أن تتناول حبتين، حبة صباحاً وحبة مساءً." ثم وقفت الطبيبة من جلستها وقالت: "نتمنى لطفلتك الشفاء العاجل. أراكم بعد شهر."

قلبت ليساء النظر في علبة الدواء التي تسلمتها من الطبيبة، نزلت من العربة الطبية باتجاه الخيمة. نظرت إلى عهد وقالت: "لماذا لم تجيبي الطبيبة؟ يتعين عليك تناول هذا الدواء حتى تنعمي بأحلام هادئة." نظرت إلى عهد مرة أخرى فلم تجد رداً كما توقعت. فقالت: "على العموم، أردت أن أخبرك أني لم أقصد مضايقتك بالذهاب إلى الطبيبة، ولكن من أجل التخفيف من حزنك."

****

في الأسبوع التالي، في صباح يوم الأحد، وقف أسامة الديب أمام المرآة ليربط ربطة العنق ولمع حذاءه استعداداً ليوم الحسم. اليوم الذي انتظره طيلة الشهر الماضي، حيث سيتحقق حلمه بالتعرف على حقوقيين يدافعون عن معاناة الشعب السوري، ويصل صوته إلى العالم أجمع. كان يأمل أن يكون هذا اليوم فاصلاً في حياته، وأن يجد من يتبنى أفكاره. استيقظت "أم سليم" لتقطع عليه حبل أفكاره كعادتها، اقترب منها واحتضنها، ثم قال لها: "أستودعك الله، ادعي لي بالتوفيق والسداد." لم تتمالك أم سليم دموعها وقالت: "ربي يوفقك."

وصل متأخراً قليلاً إلى مكان المؤتمر، وشعر بالتوتر والحرج الشديد لتأخره عن الموعد المحدد. كان يتخيل منظر الباحثين وهم ينتظرونه لبدء جلستهم، ولكن على عكس ما تخيله، كان المدعوون مشغولين بإيجاد كرسي شاغر لهم في قاعة الاجتماع التي بالكاد تسع عدد المشاركين. لم تكن هناك خشبة مسرح كبيرة كما في المؤتمرات التي يشاهدها على التلفاز؛ كانت المسافة قليلة بين المتحدث ومدير الجلسة، الذي أراد أن يعطي الفرصة لأكبر عدد من المشاركين في يوم واحد.

انتظر أسامة طويلاً لكنه لم يسمع اسمه، حتى دقت الساعة السادسة مؤذنةً بانتهاء أعمال المؤتمر. تزاحم الحضور على خشبة المسرح لالتقاط الصورة التذكارية. بعد ذلك، التفت إلى أحد الحاضرين وسأله: "هل انتهت أعمال أول أيام المؤتمر؟" أجابه قائلاً: "أعتقد أن المؤتمر اختتم اليوم. سننتظر لمدة ساعة وبعدها سنستلم الصورة الجماعية والكتاب الذي يحتوي على الأوراق

البحثية التي تم عرضها بالمؤتمر." سأل أسامة بعصبية: "لكني لم أعرض ورقتي البحثية." حاول الحضور تهدئة روعه، قائلاً: "معظمنا لم يقدم أوراقه نظراً لضيق الوقت، لكن من الجيد أن يتم نشر بحثك في الكتاب الخاص بأعمال المؤتمر، حيث يمكن لغيرك من الباحثين الاطلاع على عملك."

احمر وجه أسامة من شدة الغضب بعدما قضى وقت الانتظار في التأمل في منظر الحضور. التفت حوله فوجد معظم الحاضرين يتحدثون في مجموعات صغيرة كأنهم يعرفون بعضهم البعض. تردد في التحدث معهم. مرت الساعة وهو يتأمل الحضور، ثم اصطف الحضور لاستلام حقيبة المؤتمر، وفي ظرف ربع ساعة انفض الحضور. وقف أسامة الديب حاملًا حقيبة الكتف الصغيرة التي حصل عليها من المؤتمر. لم يتوقع أن يعود إلى المخيم بحقيبة صغيرة تصلح لتخزين الخضروات. لم يصدق أن ما ادخره طوال العام كان لشراء حقيبة خضروات. كيف ستشمته أم سليم، التي كانت منزعجة من فكرة المشاركة في المؤتمر وتراه مضيعة للوقت؟ عليه أن يقنعها بأنه كان محقاً. قضى أسامة وقت سفره الطويل يحلم بكوابيس بعدما تبددت كل أحلامه على أعتاب المؤتمر.

وصل فجراً إلى المخيم، الذي كان يكسوه الصمت إلا من صوت بكاء يعرفه عن ظهر قلب. دخل خيمته وهو يمشي على أطراف أصابعه لتفادي المواجهة المرتقبة. لم تفلح محاولته في الفكاك؛ ما إن اقترب من السرير حتى انفجرت "أم سليم" في وجهه غاضبة: "البارحة انكسرت يد سليم فذهبنا به إلى أقرب مستشفى، ونظراً لأننا لم نحمل وثيقة إقامة، اضطررنا لدفع خمسمائة ليرة لعمل الإسعافات اللازمة." قال أسامة يبرر: "كان معك ما يكفي من المال؟" انفجرت فيه أم سليم ثانية قائلة: "العين بصيرة واليد قصيرة. اقتطعت مائتي ليرة من أهالي المخيم. بالمناسبة، كم حصلت من المشاركة في المؤتمر؟" عرف أسامة أنه لن يقوى على مجادلتها، فآثر السكوت. كانت أم سليم تعرف الإجابة مسبقاً، ولكنها فقط أرادت أن تزيد النار اشتعالاً. استشاطت غضباً من سكوته وقالت: "لتعرف أنني كنت محقة عندما قلت إنها مضيعة للوقت." ثم التحفت الغطاء وقالت: "اتركني أنام لعلي أنسى كل هذا الغم."

اطمأن أسامة أنها غطت في النوم، وظل مستيقظاً يتفكر في خيبة أمله بالمؤتمر. لم يعد من الممكن أن يقنع نفسه أو زوجته أنه يخطط لمستقبل أفضل من خلال المشاركة في مؤتمر العام المقبل. فكر في قطع المراجع التي عكف على قراءتها لتخرجه من هذا المخيم، وقرر أن يلقي بهذه المراجع وراء ظهره، طالما ظل عاجزاً عن تأمين لقمة عيش لزوجته.

****

كانت ليساء وأم سليم تقضيان وقت الانتظار الطويل في طابور الخبز الصباحي، كما اعتادتا، وهما تتحدثان عن آخر الأخبار في سوريا. لاحظت ليساء إحمرار عيني أم سليم من كثرة الدموع، فحاولت أن تهون عليها ما عاشته ليلة البارحة، وقالت: "خلص حبيبتي، لا عليك، الحمد لله على كل شيء."

أجابت أم سليم بصوت خافت: "الأمر صعب، لكني تعبت من كثرة الضغوط التي نتعرض لها بالمخيم. كل يوم أسوأ من الذي قبله، أنا تعبت نفسياً." حاولت ليساء أن تهدئ من روعها، فقالت: "يبدو أننا جميعاً صرنا مرضى نفسيين في هذا المخيم. البارحة قابلت طبيبة المخيم، وقالت إن عهد تعاني من صدمة نفسية نتيجة الحرب التي عاشتها، وهذا ما يؤدي إلى الكوابيس التي تراها يومياً."

انتظرت ليساء أن تبادلها أم سليم الحديث كعادتهما، لكنها لم تستجب. فقررت أن تكمل حديثها: "انظري إلى حالي. زوجي في المعتقل ولا أعرف عنه شيئاً، وابنتي الكبرى احتسبت زواجها من المجاهدين جهاداً في سبيل الله، وابنتي الصغيرة لا أعرف كيف سيكون مستقبلها في هذا المخيم."

قطعت أم سليم حديثها بنبرة يكسوها السخط، وقالت: "والله كل يوم أقول 'بكرا بيدوب التلج وبيبان المرج'، لكني تعبت فعلاً من كثرة المناهدة. انبح صوتي مع زوجي ليترك الحياة المثالية ويعيش بيننا على الأرض. تعرفين شيئاً؟ أنا بحاجة إلى طبيب أعصاب، لم أعد أحتمل كل هذا."

أخذت ليساء نفساً عميقاً، محاولاً أن تقدم بعض الراحة لأم سليم، فالأوقات في المخيم لم تكن سهلة، وكل يوم كان يحمل تحديات جديدة.

****

بعد أيام، جلست أم سليم تنتظر دورها في العيادة المتنقلة التي تزور المخيم مرة كل أسبوع. لم يكن هناك رفاهية التواجد في حالات الطوارئ نظراً لطبيعة الحياة في المخيم. تناولت ورقة التسجيل لتملأ بياناتها، وأتت لها الطبيبة المساعدة للدخول سريعاً. لم تنتظر طويلاً، إذ بدا أن أهالي المخيم كانوا أكثر حرصاً على الحصول على حصصهم الغذائية من الحصول على الرعاية الصحية. تذكرت أم سليم زوجها أسامة، الذي لو كان معها، لكان يعطيها محاضرة عن علاقة الفقر بالتعليم.

نادت الطبيبة على أم سليم للدخول، طرقت أم سليم الباب ودخلت بخطوات وئيدة، ثم وقفت كأنها في قسم الشرطة. قالت لها الطبيبة: "تفضلي بالجلوس." جلست على الكرسي المقابل للطبيبة، ولم يكن هناك ما يلفت الانتباه سوى بعض الملصقات التوعوية التي تخص التطعيمات اللازمة للأطفال وحديثي الولادة، وكأن ما دون هاتين الفئتين لا يحتاج إلى رعاية طبية. فكرت أم سليم في أن العناية بالأطفال تعني أنهم يعيشون معاناة الكبار.

وضعت الطبيبة الملف الخاص بأم سليم أمامها وقالت: "كيف حالك؟ ماذا تشتكين؟"

أجابت أم سليم بعفوية: "أنا أعاني من اكتئاب."

حركت الطبيبة نظاراتها الطبية وقالت: "وكيف عرفتي أنك تعانين من اكتئاب؟"

تنهدت أم سليم وقالت: "ببساطة، كل شيء هنا يساعد على الاكتئاب. لقد مضت فترة وأنا أفقد أعصابي لتفاهة الأسباب. زوجي يجادلني في أمور كثيرة، أبسطها السعي على لقمة العيش، وأخيراً أصبحت مضطربة في نومي."

أخرجت الطبيبة علبة الدواء من وحدة الأدراج وقالت: "هذا دواء يساعد على علاج القلق واضطرابات النوم. خذي حبتين من الدواء يومياً لمدة شهر."

استلمت أم سليم دواءً ذو علبة بيضاء مكتوب عليها "antidepresan 100" وقالت: "شكراً يا دكتورة."

في صباح اليوم التالي، سألتها ليساء عن مقابلتها مع الطبيبة. قالت أم سليم: "والله ما بعرف، أعطتني دواءً على أن أتناول حبتين في اليوم."

قالت ليساء: "مثل عهد، كنا عند الطبيبة منذ أسبوعين وأعطتها دواءً تتناوله مرتين في اليوم."

سألت أم سليم: "وكيف هي الآن؟ هل لازالت ترى كوابيس؟"

ضحكت ليساء وقالت: "والله غابت الكوابيس، لكنها أصبحت تحكي هلوسة. قالت البارحة إن داعش والولايات المتحدة وتركيا وروسيا اتفقوا سوياً على إعادة إعمار سوريا."

ضحكت أم سليم وقالت: "مو كان ناقصنا هالخريطة."

في المساء، أدارت ليساء ماكينة الخياطة وبدأت تنسج ألوان العلم الفلسطيني: الأسود والأبيض والأخضر. تأمل الجد العلم الفلسطيني وتذكر تهجير 800,000 فلسطيني إبان حرب 48. لم تنقص أعداد اللاجئين منذ ذلك اليوم، وظل التأكيد على الهوية الفلسطينية شغله الشاغل. قال في نفسه، "شبت رأسي وشيبت، وظللنا نكتفي بالتضامن مع الشعب الفلسطيني، ونشجب ونرفض وندين بشدة التصعيد الإسرائيلي."

قطعت ليساء حبل أفكاره بصوتها الرنان وقالت: "ما رأيك، مقاس عرض وطول العلم مضبوط؟"

نظر إليها الجد بملامح غير مبالية وقال: "آه، مضبوط."

****

أيام تفصل أهالي المخيم عن عيد الأضحى المبارك، وفي غياب الضاحي، حيث لا يوجد من يُضحى به غير الأطفال والنساء، وهو ما يحرمهم من التضحية في العيد. لكن يبقى العيد مناسبة للفرح، ويستمتع أطفال المخيم بحلقات الشعر والاستحمام.

تركت أسامة الديب ابنه سليم يلعب بالهاتف المحمول الخاص بـ "باسم" صاحب محل الحلاقة. لأول مرة، شعر أسامة بطول وقت الانتظار، وكأنه غاب عن كل من حوله، بينما انغمس سليم تمامًا في لعبته. قام أسامة من على كرسي الحلاقة وبدأ يمطر باسم بالثناء على مهارته في الحلاقة. نادى على سليم أكثر من مرة، ولكنه لم يرد.

انتزع أسامة الهاتف المحمول من يد سليم وقال له: "لماذا لا ترد عندما أناديك؟ هل سحرتك اللعبة؟" ثم ناول الهاتف إلى باسم وقال: "أتعرف أن مخترع أعظم جهاز محمول كان من أصول سورية؟"

استلم باسم الهاتف وقال: "وأعرف أيضًا أنه لم يخترع الهاتف لولا تبنته عائلة أمريكية، وأصبح اسمه 'ستيف جوبز'."

تسبب ذلك في إحراج أسامة، وقال: "لكن أصوله سورية."

رد باسم: "يعني لو كان ظل في سوريا، ربما لم يكن اخترع هاتفًا محمولًا."

ضحك أسامة وقال: "والله، هذه فرضية غير موجودة، وأنت قلت أنك لا تحب الفلسفة."

بعد محادثتهما حول ستيف جوبز وملابسات اختراعه، استأنف أسامة حديثه مع باسم بينما كان يتأمل في تجاعيد يديه وملامح وجهه المتعبة من العمل اليومي في الحلاقة. بدأ أسامة يشعر بالقلق من تأثير الفقر والإحباط الذي يحيط بالمخيم على حياة الأطفال والنساء فيه.

عندما انتهى من الثناء على مهارة باسم، أخذ أسامة سليم وقرر العودة إلى المخيم لمقابلة أم سليم قبل حلول عيد الأضحى. أثناء الطريق، كان يفكر في كيفية تحسين الوضع المعيشي لعائلته ولأهالي المخيم، وكيف يمكن أن يجعل العيد هذا العام أكثر فرحاً رغم الظروف الصعبة.

وصل إلى الخيمة حيث كانت أم سليم تعد بعض الحاجيات استعداداً للعيد. كانت أم سليم منشغلة في ترتيب ملابس الأطفال وتزيين الخيمة بزينة العيد. حينما رأته، ابتسمت بوجه شاحب وقالت: "كيف كانت الحلاقة؟ هل استمتعت بوقتك؟"

أجاب أسامة: "كانت جيدة، لكنني بدأت أشعر بالقلق أكثر. نحن بحاجة إلى فعل شيء أفضل لنعيد البسمة إلى وجوه الأطفال في المخيم."

أم سليم نظرت إليه بعينيها المتعبتين وقالت: "كل شيء صعب هنا، ولكن لنعمل على إيجاد طريقة لجعل العيد مميزًا هذا العام، حتى لو كانت الأمور صغيرة."

بدأت ليساء تنضم إليهم وتشارك في التحضيرات، واتفقت أم سليم وليساء وأسامة على تنظيم احتفالية بسيطة للأطفال في المخيم. قرروا أن يقوموا بعمل ألعاب، وتوزيع الحلوى، وتحضير وجبات خاصة للأطفال والنساء، وبذل جهدهم لتوفير بعض الأجواء الاحتفالية التي قد تُشعرهم بالسعادة.

في مساء العيد، كانت الأجواء في المخيم تتسم بالاحتفالية البسيطة التي عملوا جاهدين لإقامتها. رغم كل الصعوبات، كان الأطفال يركضون فرحين في أرجاء المخيم، وأمهاتهم يبتسمن، وسيمين بأجواء العيد التي حاولوا قدر الإمكان أن ينشروا فيها الفرح والأمل.

أسامة، وهو ينظر إلى عائلته والأطفال، شعر بشيء من الراحة، على الرغم من أنه يعرف أن العمل الشاق لم ينتهِ بعد. كان يعلم أن هناك الكثير من العمل الذي يجب القيام به لتحسين حياة الناس في المخيم، لكنه شعر أن هذه اللحظات الصغيرة من الفرح كانت تستحق كل جهد.

ووسط كل ذلك، كان يراود أسامة أملٌ بأن المستقبل قد يحمل معه فرصًا جديدة لتحسين الظروف والبحث عن حلول أفضل، متمنيًا أن يكون لديه المزيد من الوقت والموارد ليقدم المزيد لمن حوله.

****

في صباح اليوم التالي للعيد، استمرت الأجواء في المخيم بالهدوء الذي اعتادوا عليه، وكان الأطفال يستغلون فرصة العيد للعب والمرح. عهد، التي كانت لا تزال تحت تأثير الدواء، لم تكن قادرة على فهم ما يدور حولها تمامًا، لكنها شعرت بجو من الاحتفالات في المخيم.

بينما كانت تُدندن أغنية "شدي حيلك يا حلب"، كان واضحًا أن الأغنية كانت تعبيرًا عن الأمل والصمود في ظل الظروف الصعبة التي يمرون بها. عندما حملتها ليساء وذهبت بها إلى منطقة تجمع الأطفال، كانت السعادة تملأ المكان بفضل العرض الذي قدمته فرقة الدمى المتحركة.

عهد، التي كانت في حالة بين النوم واليقظة، كانت تستمتع بالعرض وتحاول فهم ما يدور حولها، بينما كانت تمسك بثياب أمها كلما اقترب الأسد من الفأر. يبدو أن اللحظات البسيطة مثل هذه كانت تشكل فسحة من الفرح في حياتهم اليومية.

بعد انتهاء العرض وتوزيع الهدايا، جاءت اللحظة التي كان الأطفال ينتظرونها بفارغ الصبر. الكاميرا كانت توثق كل لحظة من الفرح، وعهد، مثل باقي الأطفال، لم تفهم تمامًا ما يجري ولكنها كانت تشعر بالسعادة.

عندما سألت ليساء المصور عن إمكانية طباعة الصور، كان الرد يتضمن إشارة إلى وسائل التواصل الاجتماعي، مما جعل ليساء تشعر بالقلق من عدم قدرتها على الحصول على نسخة مادية من الصور لأفراد العائلة الذين لا يستخدمون الفيس بوك.

أجاب المصور بابتسامة محايدة: "لا مشكلة، سنرسل الصور إليك. عليك فقط الانتظار قليلاً." لم تكن ليساء راضية تمامًا عن الرد، لكنها قبِلَت به لأن ذلك كان أفضل ما يمكن الحصول عليه في ظل الظروف الحالية.

تمضي الأيام، ومع اقتراب نهاية العيد، لم تكن العروض والأنشطة التي أُقيمت في المخيم كافية لتخفيف أحزانهم بالكامل، لكن كانت هناك لحظات من الفرح والتسلية التي أسعدت الأطفال وجعلت العيد لحظة مميزة بالنسبة لهم.

ومع حلول الليل، كانت الأجواء في المخيم قد عادت إلى هدوئها المعتاد، لكن الذكريات الصغيرة من الاحتفالات والأنشطة كانت تملأ قلوبهم ببصيص من الأمل والأمان، حتى في ظل الظروف الصعبة التي يعيشونها.

****

في صباح اليوم التالي، استيقظ أسامه الديب عازمًا على تحسين وضعه المالي وتوفير دخل إضافي بجانب عمله كمدرس. مرت من أمام صالون الحلاقة، حيث كان باسمه غائبًا، وقرر استخدام الفرصة للتحدث معه عن خيبة أمله من المؤتمر.

عندما التقى بباسم، كان أسامه يعبّر عن شعوره بالإحباط تجاه نتائج المؤتمر وعزيمته على البحث عن عمل إضافي يساعده في دعم عائلته. باسم، الذي كان يجلس في صالون الحلاقة، ألقى نظرة على الجريدة التي كان يتصفحها وأشار إلى إمكانية انتقاله إلى وسط المدينة لجذب المزيد من الزبائن.

أسامه، الذي كان يبدو مستاءً من فكرة انتقال باسم، قال له: "و تترك أهلك هنا؟" وأضاف: "تعرف الروائي العالمي باولو كويلو يقول 'بإمكان الكائن البشري أن يتحمل العطش أسبوعاً والجوع أسبوعين وبإمكانه أن يقضى سنوات دون سقف، لكنه لا يستطيع تحمل الوحدة.'"

باسم، الذي لم يبدُ مهتمًا كثيرًا بكلمات أسامه، ضحك وقال: "و ال، هذا الروائي لم يقضِ يوماً واحداً دون سقف. ثم، وسط المدينة يسكنها سوريون أيضًا ولكن ميسوري الحال."

أسامه، على الرغم من استياءه، قرر أن يتعامل مع الوضع بتفاؤل وقال: "ال يكتب لك الخير، كما يقولون 'بايدو سوار ذهب'. على العموم، إذا احتجت مساعدة، أنا موجود."

باسم، الذي كان يبدو أكثر تفاؤلاً، اقترح على أسامه أن يزور السوق التجاري في غازي عنتاب، قائلاً: "إذا زرته، ستشعر كأنك في حلب. يمكنك أن تجد عمل هناك، يعطونك ألف ليرة بالشهر."

أسامه، الذي كان قلقًا بشأن عدم امتلاكه لتصريح عمل، قال: "لكن تبقى مشكلة، ما زلت لا أملك تصريح عمل."

باسم ضحك وقال: "غالبية السوريين لا يملكون تصاريح عمل. إذا أردت أن تكسب المال، عليك أن تخلع رداء رجل القانون. نحن لاجئون، وضعنا القانوني غير ثابت، لذلك لا تشغل بالك بمسألة الأوراق والتصاريح. حاول أن تجد أي عمل تكسب منه قوت يومك."

نصائح باسم كانت صريحة وواقعية، ووجهت أسامه نحو التفكير في طرق جديدة لتحسين وضعه المالي. وعلى الرغم من قلقه بشأن الأوضاع القانونية، قرر أسامه أن يستمع إلى نصائح باسم ويبحث عن فرص عمل قد تساعده في تحسين وضعه المادي وتوفير احتياجات عائلته.

****

مرت الأيام طويلاً على أولئك الذين اختاروا الهروب من رحى الحرب التي لا تزال دائرة، والذين اختاروا العيش تحت لواء إمارة إسلامية، وأولئك الذين فرضت عليهم الظروف الدخول إلى المعتقلات حيث يفتقدون لحرية التفكير والحركة.

في صباح أحد الأيام، سافرت عهد بصحبة ليساء وجديها من غازي عنتاب إلى إسطنبول، وقد بدا على وجهها آثار التعب من رحلة طويلة. كانت المهمة تتطلب تسليم دفعة جديدة من الأعلام المخيطة بالألوان الصفراء والحمراء، ولكن الطلب كان متزايدًا بشكل غير عادي هذه المرة. فوز نادي جالطة سراي بالدوري التركي أضاف قيمة خاصة لهذه الأعلام، مما جعل كل قطعة منها محط اهتمام.

عندما وصلوا إلى مكتب إيمير إيبيك، كان الرجل متجهم الوجه. أخذ الأعلام من يد عهد وليساء ووضعها على الطاولة بحذر، كأنما يتفحص كل التفاصيل. نظر إليهم وقال بلهجة جادة: "العلكم سمعتم عن محاولة الانقلاب العسكري التي شهدتها تركيا ليلة الجمعة. لذلك، أريد منكم أن تخيطوا أعلماً تركية هذه المرة، وليس أعلماً تونسية. الفرق بسيط بينهما، لكن الوضع يتطلب مزيداً من الحذر."

شعر الجميع بقلق من طلب إيمير. فالتغييرات في الأعلام لم تكن مجرد مسألة تقنية؛ بل كانت تعكس المتغيرات السياسية والاجتماعية التي تجري في تركيا. أومأوا برؤوسهم وقالوا بصوت موحد: "Tamam" (تماماً).

بينما كانوا يغادرون المكتب، تبادلوا نظرات القلق. لم يكن فقط التوتر المحيط بالسياسة التركية هو ما يزعجهم، بل كانوا أيضاً مشغولين بظروف حياتهم الصعبة. التحديات التي تواجههم كانت أكثر من مجرد مسائل مهنية، بل كانت تتعلق بالبقاء والحفاظ على كرامتهم.

في طريق العودة إلى غازي عنتاب، جلست عهد بجانب نافذة السيارة، تنظر إلى المناظر الطبيعية التي تتغير بسرعة. تساءلت في نفسها عن مستقبلها ومكانها في هذا العالم المتغير. لم يكن الأمر سهلاً، ولكنها كانت تعرف أن كل قطعة علم تقوم بخياطتها تحمل جزءًا من أملها في تحقيق السلام والاستقرار.

لم يكن لدى ليساء وجديها الكثير من الوقت للتفكير في الأمور الشخصية، إذ كانت المسؤوليات التي تحملوها كبيرة. لكنهم كانوا مصممين على إتمام المهمة بأفضل شكل ممكن، على أمل أن يسهموا في تحسين الأوضاع بطريقة ما.

كل خطوة كانوا يخطونها كانت تتطلب قوة وعزيمة، وكل عملية خياطة للأعلام كانت تحمل في طياتها رسالة أمل لأيام أفضل. ومع كل علم يتم تسليمه، كانوا يشعرون بأنهم يساهمون في نقل الأمل والأمن إلى مكان ما في عالم مليء بالتحديات.

****

في ظل أجواء الحرب والمشاكل المستمرة، صعد "أبو هاشم الدمشقي" إلى منبر الجمعة في حلب ليخطب في جموع المصلين الذين تميزوا بلحاهم الكثيفة. بدأ خطبته بعبارات تقليدية عن تقوى الله وذكره، ثم تحول إلى الحديث عن الجهاد، مستشهداً بكلمات الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حيث أخرج ورقة من جيب جلبابه وقرأ منها بتأثر:

"إن الجهاد باب من أبواب الجنة. فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء ولزمه الصغار، وسيم الخسف ومنع النصف."

ثم أضاف: "لقد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، سراً وعلناً، كما قال الإمام علي: اغزوهم قبل أن يغزوكم. لا تواكلوا ولا تتخاذلوا، فكما غزى قوم قط في عقر دارهم، ذلوا."

نظر أبو هاشم إلى الجمع وقال: "أحبتي في الله، ما أشبه الليلة بالبارحة، لقد احتجزت وحدات حماية الشعب الكردي إخواناً لنا، معظمهم من النساء والأطفال، واعتقلوا العديد من مقاتلينا بتهمة الإرهاب. وحدات حماية الشعب الكردي عدوة لنا وتستولي على مناطق يقطنها عدد كبير من العرب السنة، لذا أدعوكم لدعم الجيش التركي في عملية 'درع الفرات' لوضع حد لانتهاكات قوات حماية الشعب الكردي ومصادرة أسلحتهم."

في اليوم التالي، اصطف الجنود خارج المسجد بعد أداء صلاة الفجر، وكانوا في انتظار التعليمات. سار أبو هاشم بين الصفوف ممتطياً جواده، مطمئناً على حالة المجاهدين. ثم قال: "لقد جاء اليوم الذي ستقضون فيه على حلفاء الشيعة والنظام. لن نترك سوريا حتى نضحي برؤوسهم كما ضحوا بصدام حسين. سوريا دولة سنية رغم أنف العلويين وحزب الله وإيران، لن نترك الجهاد حتى نعيد بلد عماد الدين زنكي ونور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي إلى ولاية أهل السنة والجماعة." ثم صرخ عالياً: "الله أكبر!" وردد الجنود خلفه: "الله أكبر!"

في هذه الأثناء، سادت مدينة حلب الهدوء بعد أسبوعين من القصف المتبادل بين داعش ووحدات حماية الشعب الكردي. قررت أمل، التي فقدت زوجها في الحرب، اتخاذ إجراءات رسمية لطلب الخروج من حلب باتجاه الحدود التركية. لكنها لم تكن تعرف الإجراءات المتبعة، فتوجهت إلى أحد مكاتب "أمن الحدود" لتنظيم عمليات التهريب.

عندما وصلت إلى المكتب القريب من مسكنها في حي الشهباء القديمة، لفت انتباهها ورقة ملصقة على الباب. بدأت في قراءة المحتوى، الذي تضمن قراراً إدارياً يمنع قطع أو تخريب أي وصل في وجود المهرب أو الركاب. لم يذكر المنشور الرسوم المطلوبة لإصدار إيصال التهريب.

دخلت أمل إلى المكتب وطرقت الباب. كان عصام، المعروف بكنيته "أبو تمام المصري"، هو المسؤول عن مكتب الهجرة. جلست أمل وأصرت على السؤال بشكل قانوني، فقالت: "معذرة، جئت أسأل عن تصريح الدخول إلى الحدود التركية."

فتح أبو تمام درج مكتبه وأخرج استمارة تسجيل. نظرته أمل إلى الاستمارة ولكنها لم تجد أي رسوم مذكورة. سألته عن الرسوم، فرد أبو تمام ببرود: "خمسة وعشرون دولاراً عن الفرد."

فحصت أمل حقيبتها وناولت المبلغ المطلوب واستمارة التسجيل. نظر أبو تمام إلى الاستمارة وقال باستهزاء: "نسيت أن تكتبي اسم المحرم. بالإضافة إلى خمسة وعشرون دولاراً أخرى عن الطفل."

قالت أمل: "معذرة، لكني أمر بظروف صعبة، زوجي استشهد في الحرب وأريد زيارة أمي في تركيا التي لم أرها منذ ثلاث سنوات."

رد أبو تمام: "عذراً أختاه، هذه قوانين الدولة. بدون ورقة المحرم قد تتعرضين للاعتقال من قبل مكتب الحدود."

تذمرت أمل قائلة: "لكن زوجي كان مجاهداً في صفوفكم."

سألها أبو تمام عن اسم زوجها، فأجابت: "علي شارنسكي."

أغمض أبو تمام عينيه ثم قال: "اتركي أوراقك وسأحاول أن أجد حلاً لمشكلتك غداً."

بعد انتهاء صلاة العشاء، اجتمع أعضاء الجماعة حول قائدهم، أبو هاشم الدمشقي. تلا أبو هاشم قول الله تعالى: "والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون." ثم قال: "أردت يا إخوتي أن أستشيركم في أمر الليلة، ما الذي ينقصنا لبناء دولة؟"

قال أبو ميمه المقدسي: "ألسنا دولة؟"

رد أبو هاشم: "نحن إمارة ولسنا دولة."

قال أبو سلمان العراقي: "ينقصنا تطبيق الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة."

قال أبو هاشم: "بارك الله فيك أبو سلمان، لكنني أقصد ما الذي ينقصنا للاعتراف بنا من قبل الدول الأخرى؟"

سكت الجميع قليلاً ثم قال أبو حذيفة المغربي: "علم الدولة، الرمز، نشيد وطني."

نظر أبو هاشم الدمشقي إلى أبو حذيفة وقال: "أحسنت يا أبا حذيفة. علم أو راية، قطعة أرض، نشيد وطني. لدينا الراية أو العلم، ووسعنا سيطرتنا على قطعة من الأرض لا يستهان بها. لا ينقصنا اليوم إلا نشيد وطني ليصبح لدينا مقومات الدولة الحديثة."

قاطعه أبو سلمان: "لكن النشيد الوطني بدعة وفيه الكثير من الجاهلية."

قال أبو هاشم: "أحسنت أبو سلمان، هذا ما أقصده. نريد أن نقدم للعالم نشيداً يعبر عنا بدون لحن موسيقي، يهدف فقط إلى تحفيز الجنود وأبناء الدولة في جهادهم ضد الطغاة لنشر راية الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها."

ثم قال: "إخواني، ما رأيكم؟"

نظر حوله فلم يجد رداً. ثم نادى أبو تمام المصري، وقال: "أنا اخترتك لهذه المهمة لولع أهل مصر بالنشيد والغناء."

هز أبو تمام رأسه موافقاً. بعد أن انفض المجلس، اقترب أبو تمام من أبو هاشم ليسأله عن إمكانية سفر امرأة بدون محرم. ظن أبو هاشم أن أبا تمام سيطلب إعفاءه من مهمة تأليف النشيد، فقال: "أنا على ثقة أنك تملك الموهبة والقدرة للقيام بذلك، ولذلك أوكلت إليك هذه المهمة."

اضطرب أبو تمام قليلاً وقال: "في الحقيقة، جئت أستفسر عن شيء آخر."

قال أبو هاشم: "خير، ما الأمر؟"

قال أبو تمام: "هناك أرملة تريد زيارة أهلها في تركيا وليس لديها محرم. استشهد زوجها في الجهاد."

نظر أبو هاشم إليه وكأنه يرى ابنه الصغير وقال: "هل يهمك أمرها؟"

قال أبو تمام: "حالته تدعو للشفقة."

فكر أبو هاشم قليلاً ثم قال: "لماذا لا تتزوجها؟ كم امرأة في ذمتك؟"

رد أبو تمام بإيجاز: "اثنتان."

ربت أبو هاشم على كتف أبي تمام وقال: "لماذا لا تثالث؟ إذا كان يهمك أمرها."

قال أبو تمام: "لم أعرض عليها أمر الزواج."

ضحك أبو هاشم وقال: "بارك الله لكما وجمع بينكما في خير."

****

في صباح اليوم التالي، عادت أمل إلى مكتب الحدود، أملًا في أن تجد حلاً لمشكلتها العالقة. طرقت الباب بهدوء، ولم تسمع أي إجابة. نظرت إلى الداخل، فوجدت "أبا تمام المصري" يتلو القرآن بخشوع، ثم أشار إليها للدخول.

دخلت أمل غرفة المكتب وانتظرت حتى أنهى أبو تمام تلاوته. وضع المصحف جانبًا ونظر إليها بجدية. قال: "لقد طرحت مشكلتك على رؤسائنا، ووجدنا بعض الخيارات المتاحة."

ثم سكت لحظة، وكان وجهه يعبر عن التعاطف لكنه لم يخفي جدية الموقف. تابع قائلاً: "أمامك خياران، كلاهما صعب. الأول هو شراء ورقة المحرم بثلاثمائة دولار. الثاني هو أن تقبلي أن تكوني زوجة ثالثة لأحد المجاهدين بنية الستر."

أمل، التي كانت تعاني من ألم وقلق، نظرت إليه بعينين مليئتين بالحسرة. قالت بصوت خافت: "هل هناك خيار ثالث؟"

أجاب أبو تمام بحزم: "هذه الخيارات المتاحة حاليًا. أنا أنقل لك ما قاله القادة."

تنفست أمل بعمق، وحاولت أن تتماسك. قالت: "أحتاج إلى وقت للتفكير. أمهلني حتى الغد لأرد عليك."

أومأ أبو تمام برأسه وأخذ ورقة من المكتب، كتب عليها شيئًا ثم سلمها لأمل. قال: "هذه قائمة بالمتطلبات والمعلومات الإضافية التي قد تحتاجين إليها. عودي إليّ غدًا وأخبريني بما تقررين."

أخذت أمل الورقة وعيناها مليئتان بالتفكير. خرجت من المكتب، و الأفكار تتصارع في ذهنها. كانت تعرف أن أي قرار ستتخذه سيكون له عواقب كبيرة على حياتها وحياة ابنها.

عادت إلى منزلها، وجلسة إلى طاولة صغيرة في ركن من أركان الغرفة المظلمة. نظرت إلى ورقة أبو تمام، واسترجعت ذكرياتها عن زوجها واستشهادِه في المعارك. لم تستطع إلا أن تتساءل عن مدى قدرة قدرتها على تحمل المزيد من الألم، ومع ذلك كانت مصممة على إيجاد حل ينقذها هي وابنها من هذا المصير المجهول.

في تلك الليلة، تساءلت أمل بين خيارين صعبين، كل منهما يحمل معاناة وآمالًا ضئيلة، وعرفت أنها في حاجة إلى اتخاذ قرار مصيري يحدد مصيرها ومصير طفلها.

****

في مساء يومٍ عادي في ريف حلب الغربي، كان الاحتفال قائماً في مكانٍ قريب من ترسانة عسكرية لتنظيم الدولة السلمية. كان الحدث غير تقليدي حيث امتزجت أجواء الفرح بالموسيقى والأهازيج السورية التقليدية. كان موكب نسائي يضم مجموعة من السيدات اللواتي يضربن الطبول والدفوف ويغنين الأغاني، يتقدمهن العروس التي كانت في طريقها إلى بيت أهلها حيث ينتظرها العريس.

أم العروس، التي كانت تحمل ذهب العروس، سارت بين السيدات، وحين وصلوا إلى منصة الاحتفال، قام العريس بإزالة الحجاب عن وجه العروس وقبّل جبينها، ثم جلس بجانبها. بدأ الشباب بإطلاق أعيرة نارية في الهواء تعبيراً عن ابتهاجهم، وهي عادة ورثوها عن أجدادهم. ثم بدأ "دي جي" بتشغيل الأسطوانات التي تضم الأغاني السورية بمختلف ألوانها.

تسللت أصوات الأغاني إلى مسامع الترسانة العسكرية التابعة لهيئة تحرير الشام، مما أثار استياء قائد المنطقة، "أبو ميمه المقدسي". طلب من كتيبة "صقور العز" القيام بتمشيط المنطقة المجاورة للعثور على مصدر الصوت. انطلقت سيارة دفع رباعي تحمل علم دولة الخلافة العباسية السوداء، وصرخ قائد السرية، "أبو يوسف المهاجر"، قائلاً: "يجب على الشعب أن ينبذ هؤلاء الحمقى."

اقتربت السيارة من منطقة سكنية تحتوي على العديد من المدارس في محيط بيت العريس. عند وصولهم، أوقف "أبو يوسف المهاجر" السيارة وأمر بالتحرك نحو مكان الفرح. عند وصولهم إلى باب المنزل، أطلق "أبو يوسف" عدة طلقات في الهواء كإشارة لبدء الاقتحام.

أعتقد العروسين أن أحد أصدقائهما جاء للتعبير عن فرحتهما، لكن الأمور تطورت بشكل درامي. اقتحم أعضاء السرية المكان وأوقفوا الموسيقى والأغاني، ثم قام "أبو يوسف" بإطلاق طلقة أخرى، موجهًا حديثه للمدعوين: "تنفيذًا لقرارات المجلس الأعلى لتنظيم الدولة السلمية والتي تمنع سماع الغناء الذي يتضمن أصوات آلات موسيقية، سيتم معاقبة المسؤولين عن هذا الحفل."

ثم قاموا باعتقال عامل الصوت وأخذ العريس إلى الخارج. توقفت السيارة أمام بوابة حديدية تعتليها لوحة خشبية مكتوب عليها "الشرطة السلمية". نزل "أبو يوسف المهاجر" من السيارة وسحب العريس إلى داخل المخفر. صعدوا إلى غرفة التحقيق حيث جلس "أبو يوسف" على كرسي مهترئ وبدأ بالتحقيق مع العريس المكبل بالأصفاد.

سأل "أبو يوسف" العريس: "هل تعرف العقوبة التي تنتظرك أنت وشريكك؟" أجاب العريس بتردد: "لا، سيدي." قال "أبو يوسف": "السجن أربعة أشهر وغرامة خمسة ملايين ليرة سورية. هل فهمت؟" قال العريس: "فهمت." ثم أضاف "أبو يوسف": "نسيت شيئًا. يجب عليك حفظ جزء من القرآن والأربعين النووية خلال فترة عقوبتك لضمان حسن السير والسلوك."

اقترب "أبو يوسف" من العريس مرة أخرى وقال: "لعلك تسأل نفسك عن سبب العقوبة المغلظة." نظر العريس إليه بدهشة، ثم صرخ "أبو يوسف": "هذه العقوبات المغلظة استخفاف بمشاعر أهالي المعتقلين والقتلى الذين بذلوا الغالي والنفيس لتحرير هذا الوطن. أنتم وأمثالك لا تبالون بموسيقى وأعراس وكأننا في ليالي ألف ليلة وليلة. أنا ألتمس لك العذر لأنك نشأت في بيئة جاهلية، لكن لا يستقيم الظل والعود أعوج. يجب أن نربي أبناءنا على حب القرآن والسنة، وليس على الأغاني والموسيقى."

****

في ظل الظروف الصعبة التي تمر بها أمل، يبدو أن قرارها بالزواج من أبو تمام جاء كوسيلة للخروج من حالة اليأس والضياع التي تعيشها. وها هي الآن تجد نفسها في وضع جديد قد يحمل لها فرصة لتحسين وضعها المالي وتسهيل سفرها إلى تركيا.

عندما قررت أمل قبول عرض الزواج، كان ذلك بمثابة انتصار صغير في حياتها المليئة بالصعوبات. أبو تمام، الذي استغل وضعها وحاجتها، قدم لها عرضًا يتضمن الزواج وتوظيفها في "كتائب الخنساء" بمرتب مغري، مما يعني أنها ستتمكن من جمع مبلغ مالي يساعدها في المستقبل. هذا العرض، على الرغم من كونه يضعها في موقف يمكن أن يكون له تأثيرات سلبية على المدى الطويل، إلا أنه يوفر لها فرصة للبقاء على قيد الحياة واستعادة بعض الأمل.

الآن، بعد أن أصبحت زوجة أبو تمام، يتعين على أمل التكيف مع الوضع الجديد، والذي يتضمن أيضًا العمل في صفوف الكتائب، وهو ما قد يغير مجرى حياتها بشكل كبير. من ناحية أخرى، قد تكون هذه الفرصة هي السبيل لتحقيق حلمها في السفر إلى تركيا وإعادة لم شملها بأمها وأختها.

أمل ستبدأ حياة جديدة، مليئة بالتحديات والمخاطر، ولكنها تبقى متمسكة بالأمل في أن تتمكن من إعادة بناء حياتها والابتعاد عن الأهوال التي مرت بها. حياتها الجديدة كزوجة لأحد رجال التنظيم توفر لها فرصة للحصول على دخل ثابت، ولكنها قد تحمل معها أيضًا تبعات ومخاطر مرتبطة بالعمل ضمن هذه الكتائب.

في النهاية، تبدو أمل قد حصلت على فرصة جديدة، رغم أن الطريق أمامها لا يزال محفوفًا بالتحديات. يبقى أن نرى كيف ستتعامل مع هذا الوضع الجديد وما إذا كانت ستتمكن من تحقيق أهدافها وإعادة لم شمل عائلتها في نهاية المطاف.

****

في أول يوم لها في بيتها الجديد، جلست أمل في غرفة عرسها تنظر إلى الجدران الفارغة. كان أبو تمام يقف بجانبها، وجهه مشدود ومتوتر. اقترب منها ببطء، وضع يده على جبينها، وقال بصوت منخفض لكن حازم: "اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا."

رفعت أمل الغطاء عن وجهها، وابتسمت بتفهم. "ليس لدينا وقت لنضيعه، لا يوجد شهر عسل في زمن الحرب. نحن في جهاد مستمر، وزواجنا هو جزء من هذا الجهاد."

شعرت أمل بحماس جديد في قلبها، وأجابت: "بالطبع، أنا مستعدة." وبابتسامة واثقة، استيقظت أمل في صباح زفافها، متطلعة لجهاد جديد في كتائب الخنساء.

في اليوم التالي، ارتدت أمل النقاب ورافقت أبو تمام في السيارة. ظنت أنها ستنضم إلى أحد مكاتب التفتيش، لكن اكتشفت أنها في طريقها إلى منطقة تجنيد. عندما وصلوا، كان أبو تمام يتفاوض مع قائدة الكتيبة. بعد انتظار طويل، جاء أبو تمام بصحبة القائدة، امرأة ترتدي النقاب وعلي جبهتها عبارة "لا إله إلا الله محمد رسول الله".

قدمت أمل نفسها بصوت خافت. "السلام عليكم، أختاه."

أجابتها القائدة بلهجة ركيكة: "وعليكم السلام. قبيل انضمامك إلى كتائب الخنساء، يجب أن تقضي أول شهر في المعسكر التدريبي. ستتدربين على حمل السلاح، وتعلم القرآن الكريم، والفقه الداعشي."

ترددت أمل قليلاً قبل أن تقول: "هذا شرف عظيم لي." أبتسمت القائدة من وراء نقابها وقالت: "نحن في حالة حرب، لذا عليك أن تنسي زوجك وطفلك خلال فترة التدريب. لا تقلقي، فهو بأمان بين إخوتك."

عند انتهاء التدريب، أصبحت أمل جندية في الكتيبة، حيث كانت مهمتها تتضمن تفتيش حقائب النساء وضبط المخالفات. على الرغم من عدم اقتناعها الكامل بالفقه الداعشي، كانت تعمل بجد لتأمين مستقبلها ومستقبل أسرتها، وكان راتبها يعادل ألف وخمسمائة دولار أمريكي شهرياً.

ومع مرور عام، وبعد أن أتمت توفير المال، قررت أمل أن تسافر إلى تركيا مع أبو تمام، كما وعدها. كان الوضع في الموصل يتدهور، وأصبح من الصعب على أبو تمام البقاء في الجهاد. بعد تفاوضه مع صديق في الأمن، أُعطى الضوء الأخضر للسفر.

وصلوا إلى الحدود التركية، حيث واجهوا تحديات جديدة. بعد دفع مبلغ إضافي لضمان دخولهم، وصلوا إلى مخيم نيزب حيث تعيش عائلة أمل.

عندما دخلت أمل الخيمة، لم تستطع أن تصدق عينيها. والدتها، ليساء، كانت تعمل على ماكينة خياطة، وعهد، أختها، كانت مشغولة برسوماتها. بمجرد أن رأت ليساء أمل، اندفعت إليها واحتضنتها بحرارة، بينما بكت أمل من شدة الفرح.

بينما كانوا يجلسون معًا، بدأت ليساء في سرد تفاصيل رحلتهم، وتحدثت عن الصعوبات التي واجهتهم. شعرت أمل بشيء من الحزن لأن عائلتها عانت كثيراً. لكنها أيضاً شعرت بالراحة لأنها عادت إلى عائلتها، واستطاعت أخيراً أن تحقق وعدها.

****

استيقظت العائلة ذلك اليوم براحتهم. قالت أمل في ليلة المس: "يمكنكم قضاء عدة أيام في إسطنبول قبل سداد الدين إلى إيمير بك."

في صباح اليوم التالي، وبينما كانوا في طابور الإفطار، وقفت ليساء تتحدث إلى أم سليم عن وصول أمل المفاجئ إلى المخيم. لم تطل ليساء في التفاصيل كما هي عادتها، لكنها أشارت إلى أن باقي المبلغ المطلوب أصبح جاهزًا، في حال قابل أسامة الديب صديقه بعد صلاة الجمعة. لم تتمكن ليساء من تقديم إجابة تشبع فضول أم سليم حول مصدر النقود، لكنها أكدت: "ليس مهمًا مصدر النقود، المهم أن نلم شمل العائلة."

دخلت أم سليم إلى خيمتهم بعد الإفطار وتسلّمت باقي المبلغ المطلوب (أربعة آلاف دولار) لتسليمه لزوجها. أخذت العائلة على غير عادتها حقيبة سفر صغيرة في رحلتهم إلى إسطنبول. استغربت أمل أنهم يعيشون في القرن الحادي والعشرين دون استخدام هواتف ذكية. قامت أمل بحجز سيارة أجرة لنقلهم من باب المخيم إلى فندق الإقامة بجانب سوق أرستا، وكأنهم يزورون إسطنبول كسائحين وليس كمتوسلين.

وصلت العائلة إلى إسطنبول مرهقة، لكن ليس كما في المرات السابقة. قررت العائلة قضاء المساء في الفندق، وتحديدًا زيارة إيمير بك في الصباح.

وصلوا إلى متجر إيمير بك محملين بالهدايا والعطور التي اشترَوها خلال تجوالهم في سوق أرستا. كان إيمير كعادته يرتشف فنجان قهوة مع مياه وحلوى تركية عندما دخلوا عليه. بدا على وجهه الاستغراب، لكنه سرعان ما تملكه الفرح عند رؤيتهم.

قال الجد: "إيمير بك، جئنا نشكرك على مساعدتك لنا، ونسدد باقي الدين."

ابتسم إيمير وقال: "بكل سرور." فتح إيمير درج مكتبه وأخرج دفتراً يدون فيه حساباته، ثم قال: "لقد سددتم مائتين وخمسين دولاراً من صافي الدين."

سأله الجد: "والمبلغ المتبقي؟"

قال إيمير: "ألف ومائتين وخمسون دولاراً."

أخرج الجد من حقيبته المبلغ المطلوب وقال: "شكراً لك."

استلم إيمير المبلغ وسلّمهم إيصال المبلغ الذي وقّعت عليه ليساء. قبل أن يغادروا المتجر، سأل الجد عن ثمن لوحة جامع "أورطة كوي" الزيتية.

قال إيمير بك باللغة العربية بطريقة موارِبة: "ما تغلى عليك."

رد الجد: "سأشتريها."

تدخلت ليساء وقالت: "كفانا لوحات يا أبي. إذا انتقلنا إلى مكان آخر، ممكن نشتريها. شكراً لك إيمير بك." ثم خرجوا من متجر إيمير بك لاستكمال رحلتهم السياحية في إسطنبول.

عادت العائلة محملة بالهدايا والعطور لأهالي المخيم. لم تنسَ ليساء رفيقة كفاحها أم سليم من الهدايا الوفيرة، واشترت لها ملابس جديدة لها ولابنها. كما اشترت لأسامة الديب بدلة جديدة ليحافظ على برستيجه بين أهالي المخيم.

في يوم الجمعة، تم فرش الحصير وجلب المنبر الخشبي الصغير ليقف عليه الإمام أثناء الخطبة. ابتدأ الإمام خطبته قائلاً: "بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين. قال المولى سبحانه وتعالى: (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)." وأشار إلى الصفة النبيلة للإيثار التي تدل على صفاء النفس ونقائها.

ثم استشهد الإمام بحديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: "جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجرًا؟ قال: «أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان...»

ختم الإمام خطبته بالدعاء: "اللهم اغفر لنا ذنوبنا وكفّر عنا سيئاتنا، وتوفّنا مع الأبرار، وارفع مقتك وغضبك عنا، وقيّنا شر ما قضيت. اللهم لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا."

بعد انتهاء الصلاة، التقى أسامة بصديقه باهر سرحان، الذي جاء كعادته لتفقد أهالي المخيم. سأله أسامة عن آخر أخبار سوريا، فقال باهر: "صار لدينا مجلس نيابي شرعي منتخب." لم يخض أسامة في جدال، لكنه قال: "هذا باقي المبلغ المطلوب."

استلم باهر الدولارات وقال: "أربعة آلاف دولار، مضبوط. لكن لم أتوقع أن تجمع المبلغ بهذه السرعة. من أين لك هذا؟"

رد أسامة: "ما بعرف."

قال باهر: "كيف ما بتعرف؟"

تذمر أسامة وقال: "بدك العنب ولا تقاتل الناطور."

قال باهر: "خلص، حقك عليّ."

سأل أسامة: "متى التسليم؟"

أجاب باهر: "خلال شهر من الآن."

سأل أسامة: "هل هناك غرامة تأخير؟"

ضحك باهر وقال: "لا تقلق، إن شاء الله المرة القادمة يأتي معي."

****

ستيقظ باهر غضبان في اليوم التالي على صوت باهر سرحان وهو يوقظه للاستعداد للسفر. فرك باهر عينيه وقال: "بهذه السرعة؟"

أجابه باهر سرحان: "ليس لدينا وقت، سنسافر إلى حلب ومن ثم إلى تركيا."

سأل باهر غضبان: "ولماذا نسافر من حلب وليس من اللاذقية؟"

تنهد باهر سرحان وقال: "لدي صديق مخلص على الحدود التركية يحب أن يخدم السوريين جميعًا."

قال باهر غضبان بتلقائية: "ربي يكثر من أمثاله ويجازيه كل خير."

رد باهر سرحان: "اللهم آمين. هل لديك متاع تأخذه معك؟"

قال باهر غضبان: "نسيت أن أُحضِر حقيبة ملابسي وأنا ذاهب إلى المعتقل."

قال باهر سرحان: "لا عليك، هذا أفضل. اغسل وجهك وسنستقل أول حافلة متجهة إلى حلب."

وصلت الحافلة بعد رحلة استمرت لثلاث ساعات إلى نفس المعبر الحدودي الذي وقفت فيه ابنته أمل منذ أسبوعين تقريبًا. قال باهر سرحان: "ناولني جواز سفرك."

تسلم باهر سرحان الجواز وتأكد من أنه غير منتهي الصلاحية، ثم قال: "تعال معي." سار الاثنان تجاه الغرفة الزجاجية في نقطة الحدود. عندما وصلا إلى الغرفة، طرق باهر سرحان زجاج الغرفة الجانبي بخفة. التفت إليه "منذر" واستكمل فحص جوازات السفر التي أمامه ثم خرج إليهما.

بشّ باهر سرحان في وجهه وقال: "صباح الخير، العميد منذر، نحن من طرف العميد بسيم أبو شنب."

قال منذر: "العميد بسيم أبو شنب من خيرة الناس، كيف يمكنني مساعدتكم؟"

ناول باهر سرحان الجواز وأعطى معه خمسمائة دولار. فحص منذر الجواز وتأكد من صلاحيته، ثم قال: "أهم شيء أن الجواز سوري وليس تابعًا لحكومة المعارضة." وضع النقود في جيبه وقال: "انتظروا هنا حتى أختم جواز السفر."

بعد بضع دقائق، عاد النقيب منذر ومعه جواز السفر الذي يحمل تأشيرة دخول إلى الأراضي التركية. تسلم باهر سرحان الجواز وقال: "أكثر الله من أمثالك."

تنحنح النقيب منذر وقال: "هدفنا هو التيسير على السوريين جميعًا." ثم انطلق الاثنان تجاه الأراضي التركية.

وصلوا يوم الجمعة عصراً إلى المخيم. كان المخيم يتناول طعام الغذاء عادةً في ذلك الوقت، لذا خلت الطرقات من المارة. لم يكن باهر سرحان بحاجة إلى من يرشدوه إلى خيمة الخياطة، التي أصبحت تُعرف بـ"خيمة الثرياء" بعد أن امتلأت برائحة اللحم المشوي والدجاج بدلاً من صوت ماكينة الخياطة.

وقف باهر سرحان على باب خيمة أسامة الديب ونادى عليه. مسح أسامة الديب فمه وارتدى معطفه ليخرج إليه. تفاجأ أسامة بتواجد باهر غضبان بجانبه، لم يتوقع أن تكون خدمة التوصيل بهذه السرعة. ابتسم باهر سرحان وقال: "جئت أسلمك المبلغ."

ضحك أسامة وقال: "يجب أن نكشف عليه قبل استلامه."

قال باهر سرحان: "يمكنك إرجاع البضاعة خلال 30 يومًا من تاريخ استلامها بشرط أن تكون في نفس الحالة."

لاحظ أسامة علامات الاستياء على وجه باهر غضبان، فقال: "دعني أوصلك إلى زوجته وابنتيه، فهما في انتظاره على أحر من جمر."

وقف أسامة الديب على باب الخيمة ينادي على الجد. خرج الجد متوقعًا أن يأخذه إلى باسم الحلق كعادته، لكنه تفاجأ بوجود باهر غضبان بهيئته الرثة. استقبله الجد استقبالاً فاتراً وقال: "حمد لله على سلامتك يا بني."

ابتسم باهر غضبان ابتسامة صفراء وقال: "الله يسلمك يا عمي." ثم دخل إلى الخيمة لمقابلة أسرته.

انطلقت ليساء تجاهه لتحضنه فور دخوله من الخيمة، قابلها باهر بكل برود وكأنه قابلها البارحة. لم يلتفت باهر إلى أمل كثيرًا، بل لم يلفت انتباهه سوى عهد، التي تركها رضيعة وعاد إليها بعد ست سنوات. اغرورقت عيناه بالدموع عندما رآها. ظل مشدوهاً لفترة، عادت ذاكرته إلى اللحظة التي غادر فيها منزله في حلب إلى المعتقل ثم إلى المخيم في تركيا. بكى كثيرًا وهو يحاول استيعاب ما حدث له خلال السنوات الماضية.

حاولت ليساء تهدئته، لكنها بدأت تشك في أنها تعرفه. هل كانت تتمنى أن يعود إليها جسدًا بلا روح، أم كانت تتمنى أن يعود زوجها فاقدًا للذاكرة؟ مرت الليلة وليساء تقص على باهر ما عانته خلال غيابه، وهو ينظر إليها ببلهة، دون أن يظهر عليه علامات رضا أو تذمر مما حدث لهم. كان جل أسئلته عن عهد، كان يسأل عن تفاصيلها وكأنه لم يفتقد غيرها طوال فترة المعتقل.

****

في صباح اليوم التالي، استيقظ الجميع على صوت مدرعات الجيش التركي. بدأ أحد الجنود بالنفخ في المزمار العسكري إيذانًا ببدء بيان سيقدمه قائد الكتيبة لأهالي المخيم. وقف القائد التركي فوق إحدى الدبابات ليلقي كلمته بالتركية، والتي قام أحد معاونيه بترجمتها. قال القائد:

"قررت تركيا اعتبار المنطقة التي يقع فيها المخيم منطقة عازلة للحد من الهجرة غير الشرعية القادمة من الشمال، ولمنع حدوث اشتباكات بين القوات التركية والمقاتلين الأكراد. وبناءً عليه، تقرر نقل أهالي المخيم إلى الشريط الحدودي الملصق لليونان."

ثم طوى القائد الورقة وناولها لأحد معاونيه، قبل أن يوجه السؤال إلى المخيم إن كان لديهم استفسارات. رفع أحد أهالي المخيم يده وسأل:

"يعاني أهل المخيم من نقص مياه الشرب، كذلك مستوى النظافة والصحة والتعليم، وهي تتدهور من سيء إلى أسوأ."

هز القائد العسكري رأسه وهو يستمع إلى المترجم، ثم قال: "ستنتقلون إلى مكان أفضل في منطقة نهر إيفروس. سيوفر لكم النهر مسبحًا في الهواء الطلق ومطعمًا. أضمن لكم أنكم لن تعانون من نقص في المياه هناك."

نكز أسامة الديب أم سليم وسأل: "هل يأكلون سمك البقلة هناك؟"

سألته أم سليم: "وما سمك البقلة؟"

قال: "قرأت للكاتب العالمي غابرييل غارسيا ماركيز أن الشعب الكوبي كان يأكل سمك البقلة أيام حصار الولايات المتحدة له."

تنهدت أم سليم وقالت: "خلينا في مصيبتنا."

تذكر أسامة أنه مكلف بالدفاع عن حقوق أهالي المخيم، فرفع يده ليسمح له بالسؤال. بدأ أسامة سؤاله أو كلمته قائلًا:

"نثمن غاليًا الجهود التي تقوم بها تركيا حكومةً وشعبًا تجاه اللاجئين السوريين، وما تبذله الحكومة التركية من جهود متعددة في مجالات الإغاثة والتعليم والصحة والاجتماعية، وهو ما يمثل عبئًا إضافيًا على الحكومة التركية. لذا، نناشد الحكومة التركية ودول الجوار لسوريا العمل على لم شمل الأسرة السورية التي قيدتها القوانين وإجراءات استخراج تأشيرة الدخول إليها. كما نناشدهم العناية بتعليم اللاجئين السوريين في تركيا، والعمل على الاعتراف بالشهادات الثانوية والجامعية السورية لمن يرغب في الالتحاق بسوق العمل."

همس أحد الجنود في أذن المترجم، ثم التفت إلى أسامة الديب قائلًا: "عذرًا، هل هناك سؤال محدد تطرحه؟"

ارتبك أسامة قائلًا: "أردت فقط أن أذكركم أن من موجبات الحماية المفروضة للاجئ أنه لا يحق لدولة ما طرد لاجئ عن أراضيها إلا عندما يشكل وجوده خطرًا على الأمن الوطني للدولة، أو إذا أُدين بحكم قضائي نهائي بجريمة خطيرة بعد خضوعه لمحاكمة عادلة، وتمكينه من ممارسة حق الدفاع عن نفسه. فإذا تمت كل هذه الإجراءات وحسمت الدولة قرارها بطرده، فعليها أن تمنحه فترة زمنية مناسبة للبحث عن إمكانية الدخول إلى بلد آخر آمن يستقبله."

ظهرت على وجه القائد العسكري علامات التذمر وهو يستمع إلى الترجمة، ثم رد قائلًا: "أنا أؤكد لك سيدي أنك ستنتقل إلى أراضٍ ذات سيادة تركية، لذا نحن لسنا بصدد طرد أهالي المخيم من تركيا." ثم أمر المترجم بأن يسأل إن كان هناك أسئلة أخرى.

ابتسم القائد العسكري وقال: "حسنًا، يرجى التفضل بإعداد أمتعتكم لترك المخيم صباح الغد إلى مخيمكم الجديد."

التفت باهر غضبان ليراقب علامات الاضطراب على وجوه أهالي المخيم وكأن مجيئه كان نذير شؤم عليهم. عادت ليساء إلى خيمتها وهي تضع ما لديها من متاع في حقائب صغيرة استعدادًا للرحيل. لم تشارك عهد في إعداد الحقائب، بل كانت تجلس خارج الخيمة بصحبة جدها، وتستمع إلى حديثه الممل. كانت عهد تسأل جدها عن رأيه في أي شيء بالمخيم، فيجيب بنفس الإجابة: "المشكلة في النظام."

استمرت عهد في الاستماع إلى حديثهم، لم تشبع من أبيها لكنها لم تتوقع أن يكون بهذا التبلد عندما عاد إليها.

****

في صباح اليوم التالي، توقفت ثلاث شاحنات بيضاء كبيرة عند المخيم، كل واحدة منها تتسع لحوالي ستين شخصًا على أقصى تقدير. تدافع المئات من أهالي المخيم باتجاه الشاحنات، ولم يعد هناك أي نظام بعدما أُمروا بإخلاء المخيم. كانت ليساء تقف بجانب جدها، تراقب المشهد من بعيد، فقالت: "إذا استمرت حركة النقل بهذه الوتيرة، فسيتم نقل سكان المخيم في عدة أشهر."

قال الجد بتهكم: "أرجوكِ، كفاكِ نشر طاقة إيجابية."

أجابت ليساء: "حسنًا، احجزي يا أمل سيارة أجرة تنقلنا إلى إسطنبول بمائتي دولار لنشحذ هناك."

قال الجد ساخرًا: "شكرًا لكِ، لننتظر حتى نموت هنا."

انتظرت الأسرة حتى المساء لقدوم الشاحنات، ولكن بدا أنهم كتب عليهم أن يظلوا في العراء تلك الليلة. استيقظت ليساء في الصباح التالي، مُعفّرة بالتّراب. قالت بحزم: "ليس أمامنا سوى أن نحشر أنفسنا وسط الجمع لنضمن أن نغادر اليوم."

عندما وصلت الشاحنات البيضاء، جذبت ليساء والدها من يده وقالت: "هيا بنا، سنغادر اليوم."

قال الجد: "حان وقت الرحيل؟"

أجابت: "بلى."

اندفعت عهد وهي تشد والدها إليها، بينما حمل باهر غضبان عهد على كتفه وأمسك بيد أمل وسط الزحام. تعارك الناس وتزاحموا للظفر بمقعد داخل المركبة. لم يستطع الجد تحمل تدافع الشباب من حوله، فصرخ في ليساء كي تتوقف، لكن إصرارها وضجيج الجمع حال دون سماع صراخه وتوسلاته. انفلتت يد الجد ولم تشعر ليساء بذلك إلا عندما صعدت إلى الحافلة وتركته مدهوسًا تحت الأقدام.

نزلت ليساء من الحافلة تصرخ في الجمع، ولكن بعد فوات الأوان. لفظ الجد أنفاسه الأخيرة تحت أقدام النازحين من المخيم. انطلقت الحافلة التي تقل أمل وعهد وباهر غضبان، تاركين ليساء تواجه مصيرها وحدها، لتدفن وتغسل والدها وحدها.

انتظرت ليساء في مكانها حتى جاءت دائرة الجنازة التابعة للبلدية في غازي عنتاب لبدء إجراءات الدفن. لم يكن أحد من المشيعين يعرفه، ولكنهم كانوا يصلون العصر في المسجد القريب من المخيم. انتهت مراسم الدفن قبيل المغرب، ثم تاهت ليساء في شوارع غازي عنتاب باحثةً عن الشاحنات البيضاء التي أخذت عائلتها إلى الحدود اليونانية.

على الجانب الآخر، لم يكن هناك مخيم في انتظار عهد وأمل وباهر غضبان، بل وجدوا أنفسهم واقفين في طابور طويل أمام أسلاك شائكة تفصلهم عن الحدود اليونانية. وقفت عهد بين والدها وأمل، تنظر إليهم وسط كل هذا الزحام. لم تكن تتصور أن حياتها في المخيم كانت نعيمًا مقارنةً بما هي مقبلة عليه.

سألت عهد والدها عن مدة الانتظار في هذا الطابور، فلم يجد باهر غضبان إجابة مناسبة سوى: "ربما يوم أو يومين."

حاول بعض الشباب قطع الأسلاك الشائكة للدخول إلى الحدود اليونانية، مما أثار حفيظة قوات حرس الحدود اليونانية على الجانب الآخر، فأطلقوا عليهم قنابل الغاز المسيل للدموع مباشرة. تراجع الجمع إلى الوراء لشعورهم بالاختناق. تركت عهد يد والدها وهربت من سحابة الدخان التي غطت المكان.

انطلقت عهد بعيدًا عنهم حتى وصلت إلى جسر حديدي محاط بسياج، نظرت إلى الأسفل، حيث قاع نهر إيفروس. تأملت منظر الصخور والحجارة الكبيرة التي تنتظرها أسفل النهر، وقالت لنفسها: "قفزة واحدة وينتهي كل شيء. لا شيء يشبهني هنا، حتى الذين كنت أظن أني أعرفهم أثرت فيهم الحرب فصاروا أناسًا آخرين. قفزة واحدة ستنهي كل هذه المعاناة."

استغرقت عهد في التفكير بعمق قائلة: "لقد استغرقت عمري بأكمله للعثور على موطن يقبلني، لكن لم يعد هناك وطن. هل أعيش في هذه الدنيا على درب أبي وأختي، باحثةً عن الحقيقة أو عن أصدقاء سوريا الحقيقيين وأعدائها؟"

نظرت إلى السماء المشتعلة بالألعاب النارية احتفالًا بالعام الجديد. لم تعد تخاف من هذه الصواريخ، فقد تركتها أمها وجدها لتواجه الموت اختيارًا أو إجبارًا على الحدود اليونانية. لم يعد لديها شيء لتخسره. عادت إلى نقطة الصفر مرة أخرى، وعليها أن تحمل الراية الآن وتبدأ في لم شمل العائلة مرة أخرى.